

أدبيّات النّهوض



عاشوراء
الحدث والمعنى

محمّد مهدي الآصفي





عاشوراء
الحدث والمعنى

اسم الكتاب: عاشوراء: الحدث والمعنى

المؤلّف: محمّد مهدي الآصفي

الناشر: دار المعارف الحكميّة

إخراج الكتاب: Idea Creation

عدد الصفحات: ١٢٨

القياس: ٢١,٥*١٤,٥

تاريخ الطبع: ٢٠١٣



الطبعة الأولى

ISBN 978- 614- 440- 000- 5

[1435 هـ. -2013 م.]



العنوان: حارة حريك - الشارع العريض - سنتر صولي - ط٢ شمالي
تلفـاكس: ٥٤٤٦٢٢-٠١ - Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

باسمه تعالى

كلمة المعهد

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وجعله خليفته في أرضه، وبعث إليه الأنبياء والرسل بغية صيانته من الانحراف، وتوجيهه نحو أهداف الخلافة الرشيدة. فكان الدين الإلهيّ واحدًا مذ وقع آدم، الإنسان الأوّل، على هذه الأرض. وتعاقبت الأجيال، وكلّها تدور في فلك هذه المحوريّة، والهدف هو إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والإيمان. وكذلك إحياءً لعقل الإنسان وتحريره من براثن العبوديّة لغير الله سبحانه، ليكون حرًّا كما أراده الله.

إلّا أنّه في مسيرة الحياة، يقف في كلّ عصر طاغية في مقابل شرع الله ودينه، ويبتغي عودة الإنسان الحرّ إلى عبوديّة غير مرجوّة، وكان على المؤمنين محاربته بالكلمة، بالموقف، وبالدم أحيانًا؛ وهو ما أراده الإمام الحسين عليه السلام من خلال النهضة العاشورائيّة. فثار، عليه السلام، في وجه الظلم معلنًا الهدف الأساس «إنّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر»[1].

فلا يمكن تحييد النهضة الحسينيّة عن المنظومة الكاملة للدين الإلهيّ. فهي ليست مجرّد حادثة تاريخيّة مضت في الزمن الغابر، بل إنّها تمثّل عمق الحياة الإيمانيّة، وهي ليست حدثًا تاريخيًّا أتى كنتيجة حتميّة وضروريّة لمجموعة من الظلامات التي عاناها الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام فحسب، بل هي بما تختزن من قيم ومعانٍ تعبّر عن نهضة

(١) محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار، الطبعة ٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٣٨ م)، الجزء ٤٤، الصفحة ٣٣٠.

الإنسان، بما هو إنسان، في وجه الظلم. فهي خير مصداق يجسّد تعاليم القرآن الكريم من نصر المستضعفين المحقّين، والهدف الأسمى والأساس للأنبياء وللرسل وللرسالات السماويّة كلّها.

ليس السرّ في كربلاء في استمرار ذكر ابن بنت النبيّ صلّى الله عليه وآله وحسب، بل السرّ بما تحوي من هدي وإرشاد إلهيّ. السرّ في أنّها شعلة تنتفض وتثور فتُسقط عروش طواغيت، وتهدّ أركان سلاطين. السرّ في أنّ هذا الدم الذي سقط في كربلاء ويسقط في كلّ يوم على امتداد الزمن يعطي القيمة لروح الإنسان الخليفة لله تعالى ونفسه.

مع الكتاب

يقدّم الكتاب أربع مقالات متفرّقة لسماحة الشيخ محمّد مهدي الآصفي، جمعها عنوان واحد هو عاشوراء، أعاد معهد المعارف الحكميّة تحريرها وإصدارها. وقد بُوّبت هذه المقالات وفقًا لترتيب منهجيّ متسلسل متتابع بدأ من نقطة الصراع بين التوحيد والشرك، مرورًا بخروج الإمام الحسين، عليه السلام، وما أنتجت هذه الثورة المباركة من دروس وعبر، وصولًا إلى التحدّيات التي عانى منها زوّار الإمام، عليه السلام، في كربلاء عبر الزمن.

يعرض الباحث في مقالة «مناقشة الفهم الآخر لعاشوراء» حتميّة الصراع بين حركة التوحيد والشرك عبر التاريخ. ويقول: إنّ هذين الخطّين يمتدّان على وجه الأرض وفي حياة الناس من دون أن يتقاطعا، وأنّ مهمّة الأنبياء كانت عبر الزمن الدفاع عن المحرومين والمستضعفين ضدّ المستغلّين الطامعين الظلَمة. إنّ الصراع بينهما صراع حضاريّ لا على المال أو السلطان، بل على الحاكميّة والولاية. ثمّ عرّج على مواجهة الإسلام لهذا الصراع من حركة الدعوة في مكة والمدينة، ثمّ في معركة

صفّين والجمل، وصولًا إلى حادثة الطفّ التي أفشلت مخطّطات بني أميّة الذين حاولوا أن يستعيدوا ممارساتهم التي أفشلها الإسلام، باسم الإسلام من غناء ومجون وغيرها من عوائد الجاهليّة. وإنّ من أهمّ أهداف الحركة الحسينيّة إسقاط بني أميّة وسلب الصفة الشرعيّة عنهم، وتجريدهم عن مواقع الشرعيّة ليعيد للإسلام نقاوته.

يقترح الشيخ الآصفي في مقالة «الفئات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام» تصنيفًا للمعارضين، بناءً على أسباب عدّة: الفئة الأولى، هم الذين يضمرون الحسد والضغينة للإمام. والثانية هم أصحاب الضعف والجبن والتخاذل عن اتّخاذ قرار الخروج. أمّا الفئة الثالثة، فهم الذين جهلوا أهداف الثورة ولم يمتلكوا الوعي السياسيّ الكافي لأهدافها. ويعرض الباحث رأي الإمام الحسين عليه السلام بضرورة الخروج ومواجهة الظلم والاستكبار. كما يقول الباحث: إنّ هذه الدراسة تعكس صورةً دقيقةً عن الأوساط المعارضة للعمل الإسلاميّ والحركة والثورة الإسلاميّة في الساحة الإسلاميّة المعاصرة.

بينما دعا الشيخ الآصفي في مقالة «الخطاب الحسينيّ» إلى استلهام الدروس والعبر والثقافات من مدرسة عاشوراء، وهي السنن الإلهيّة التي وعد الله المتّقين فيها، ومنها: ميراث الأرض، ونصر المؤمنين، وتلبية النداء والحضور في ساحات النزال وأخذ الموقف الرافض للظلم والذلّ، ورفض العمالة لأنظمة الاستكبار العالميّ، كذلك الوعي الدينيّ والسياسيّ والحضور الواعي والمسؤول تجاه الأمّة. وأيضًا ضرورة الحضور الموجّه في الساحة من قبل المرجعيّة الدينيّة الراشدة لحفظ وحدة المواقع السياسيّة من التشرذم والتشتّت من دون رفض التعدّديّة السياسيّة، شرط أن لا تؤدّي إلى فساد الرأي. ويذكر أيضًا أنّ الخطاب الحسينيّ هو خطاب مزدوج: الأوّل لتفعيل الشعائر الحسينيّة، والثاني هو الجانب الثقافيّ في نهضة الحسين عليه السلام للقضاء على الطغاة وتحرير العالم من ظلمهم،

وكذلك تفعيل دور المرأة في صناعة الأمّة والتاريخ.

أمّا في مقالة «التحدّي والتحدّي الآخر: رؤية حضاريّة -حركيّة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام»، فيشير الكاتب إلى أنّ لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء تاريخ طويل مخضّب بالدم. فقد سعى مبغضو الإمام عليه السلام عبر الزمن من منع الموالين من الزيارة ابتداءً من خلفاء حكومة بني العبّاس إلى التحدّيات الوهّابيّة لحكومة آل سعود، وفي العهد العثمانيّ، إلى تحدّيات العصر الحالي مع صدّام حسين والهجوم العسكريّ على القبر الشريف إلى التفجيرات الإرهابيّة في كربلاء بعد سقوطه. ويشير إلى سرّ موقف السلاطين من قضيّة الإمام الحسين عليه السلام، فهم لا يخافون من البكاء والنياحة فقط، بل الخوف من أن يستلهم الضعفاء القدرة وقوّة مواجهة الظلم والاستكبار، ويظهر ذلك من خلال حثّ الإمام الحسين عليه السلام في خطاباته لمواجهة الظلم ورفض الذلّ وضرورة تعرية الظالم وفضحه.

لم ولن تتوقّف مكائد الأعداء عبر الزمن، وإنّ دم الحسين أيضًا لم ولن يجفّ؛ سيبقى شعلة النصر التي ستطفئ حتمًا نيران الظلم والاستبداد، والحدث الذي ينقذ البشريّة في كلّ لحظة من لحظات الزمن وينشلها من عبوديّة غير الله، وسيبقى المؤمنون والأحرار في كلّ العالم يستلهمون القوّة والعزم من ذلك الحرّ الخالد، خليفة الله الحقّ، الإمام الحسين عليه السلام.

والحمد لله ربّ العالمين.

معهد المعارف الحكميّة

سكينة أبو حمدان

مناقشة الفهم الآخر لعاشوراء

توطئة

يقول الدكتور عبد العظيم الديب، بعد أن يذكر الفتوحات الإسلاميّة: «هذا هو تاريخ الإسلام، أمّا معركة الجمل وصفّين وكربلاء... فتلك عثرات على الطريق»[1].

ماذا يقصد الدكتور بالعثرات، وما هو دور رسالة عاشوراء في تاريخ الإسلام؟

هذا المقال يناقش هذا الرأي. وإليك تفصيل القول في ذلك من خلال مجموعة من النقاط.

•

الصراع بين حركتي التوحيد والشرك

إنّ قوام التاريخ هو الصراع بين التوحيد والشرك، وبين الحقّ والباطل، حتّى وإن ضاقت مساحة هذا الصراع، واختفى عن الرأي العامّ، ولم يستقطب اهتمام الناس على وجه الأرض.

والحتميّة من أهمّ قوانين وسنن هذا الصراع، فلا يمكن أن يمتدّ هذان الخطّان على وجه الأرض وفي حياة الناس دون أن يتقاطعا، ودون أن يؤدّي هذا التقاطع إلى المواجهة والصراع، فإنّ حركة التوحيد تقوم في المجتمع على أنقاض الكفر والشرك، ويمتدّ التوحيد على مساحة نفوذ الشرك كما يمتدّ الشرك على مساحة نفوذ التوحيد، ولا يقوم للشرك والكفر أساس ولا أثر في حياة الناس إلّا بزوال التوحيد. فكلّ منهما يطرد الآخر. وهذا التناقض بين التوحيد والشرك هو الذي يؤكّد حتميّة الصراع بينهما.

---

(١) عبد العظيم محمود الديب، المنهج في كتابات الغربيّين عن التاريخ الإسلاميّ، ضمن سلسلة كتاب الأمّة، العدد ٢٧، الصفحة ٦٧.

وإذا أردنا أن نفهم التاريخ وسننه وقوانينه وأحكامه التي يرسمها الله تعالى لنا في كتابه الكريم، فعلينا أن نقرأ تاريخ الأنبياء وحركتهم في ساحة المواجهة لأقوامهم.

إنّ حركة الأنبياء ترسم لنا المعنى الحقيقي لـ«الصراع» و«التاريخ»، وترسم سنن الصراع في جبهة التوحيد والشرك، وما يتطلّبه هذا الصراع من الصبر والتضحية والعطاء في كلّ من الجبهتين، وما يتخلّله من ألوان المحنة والعذاب، وما يتعقّبه من نصر القلّة المؤمنة وسقوط جبهة الكفر والشرك، وما يرافقه من تساقط وتخاذل في صفوف أنصار الحقّ، ومن تبادل المواقع في كلّ من الجبهتين.

ولا شكّ أنّ من واجب الأنبياء الدفاع عن المحرومين والمستضعفين، والوقوف إلى جانبهم ضدّ المستغلّين والظالمين.

ولكنّ هذه المعركة ليست هي المعركة الأساسيّة والمحوريّة في حركة الأنبياء، وليست هي محور صراع معركة الأنبياء، وإنّما المحور والصراع هو بين التوحيد والشرك، والحقّ والباطل.

حركة موسى بن عمران (ع)

ضمن هذا التصوّر للتاريخ، لا بدّ لنا من درس حركة موسى بن عمران (ع).

إنّ تاريخ حركة كليم الله موسى بن عمران (ع) هو في الصراع بين التوحيد والشرك. ومن خلال هذا الصراع نستطيع أن نفهم تاريخ موسى (ع) والمنعطفات الحسّاسة في حركته، والعقبات التي واجهها، والأسلوب الذي اتّبعه في مواجهة هذه العقبات، وكذلك الإنجازات التي حقّقها الله تعالى على يده في المراحل التي اجتازها وتخطّاها.

ومن خلال هذه الرؤية نستطيع أن نفهم الفتن التي حدثت في مجتمع بني إسرائيل بعد أن نصرهم الله تعالى على فرعون وأنقذهم من الغرق، وكيف دبّ الشرك مرّةً ثانيةً، من خلال حركة السامريّ وتضليله لبني إسرائيل، واستجابتهم له واستضعافهم لهارون (ع) وتمرّدهم عليه، وطلبهم للعكوف على عبادة الأصنام، وامتناعهم عن الاستجابة لدعوة موسى بن عمران (ع) لقتال القوم الجبّارين، وابتلاء الله تعالى لهم بعد ذلك بالتيه أربعين سنة.

وهكذا، تتلقّى حركة التوحيد تحدّيات صعبةً من الشرك، وقد واجه موسى بن عمران (ع) هذه التحدّيات مرّتَين؛ قبل غرق فرعون وبعده: من خارج الجماعة المؤمنة من بني إسرائيل قبل الغرق والاجتياز. ومن داخل الجماعة المسلمة من قومه بعده . فإنّ الشرك لا يكفّ عن المقاومة بعد السقوط في المرحلة الأولى من المواجهة، وإنّما يمارس، في مرحلة لاحقة، المقاومة من داخل الجهة المسلمة. وهذه المقاومة أشقّ على الإسلام من المقاومة الأولى.

يبقى أن نقول: إذا كان التوحيد والإسلام حركةً في التاريخ والمجتمع، فإنّ الشرك والجاهليّة حركة أيضًا في مواجهة الحركة الأولى، متقاطعة معها. ومهمّة هذه الحركة إعاقة حركة التوحيد والإسلام، وتعطيل حدود الله تعالى وفرائضه على وجه الأرض، والخصال والشروط المقوّمة للحركة موجودة فيها، وهي في الجهة المعاكسة لحركة التوحيد والإسلام في كلّ شيء.

الفهم الصحيح للتاريخ

أعتقد أنّ الفهم الصحيح للتاريخ وقوامه هو بلحاظه حركة صراع بين هاتين الحركتَين : التوحيد والشرك.

تكون المقاومة في المراحل الأولى من ظهور حركة التوحيد من الخارج على كيان التوحيد، وعندما تنهزم حركة الشرك في الجبهة الخارجيّة أمام هذه الحركة تتحوّل المقاومة إلى الداخل. فالعدوّ عندما يعجز عن إسقاط حركة التوحيد من الخارج، يبدأ العمل في تحريف مساره من الداخل. وبتعبير آخر؛ يكون الصراع في المرحلة الأولى على التنزيل، وفي المرحلة الثانية على التأويل. فيواجه التوحيد بذلك خطرَين هما: خطر الاستئصال من الخارج، وخطر التحريف والإفساد من الداخل، حيث يتمثّل الخطر الأوّل بالمشركين، والثاني بالمنافقين.

ولكلّ من هاتين المواجهتين، من الخارج والداخل، أثر تخريبيّ واسع في الدعوة، إلّا أنّ الأثر التخريبيّ للمواجهة الثانية أوسع بكثير من الأولى. ذلك أنّ المواجهة الأولى تزيد الأمّة في طريق تحمّل رسالة الدعوة إلى الله صلابةً ومتانةً وقوّة، كذلك استحكامًا وتماسكًا. أمّا الثانية، فتشقّق الأمّة الداعية إلى الله، وتذرهم فرقًا وطوائف متناحرة، وتُدخل التحريف إلى صلب الدعوة فتستهلكها وحملتها من الداخل.

فالمواجهة الأولى من عوامل قوّة العصابة المسلمة التي تحمل رسالة الدعوة، ومن عجب، أنّ الثانية أشقّ على رسالات الله تعالى؛ وهذه هي ظاهرة النفاق. وقد واجه موسى بن عمران وأخوه هارون (ع) بعد هلاك فرعون وجنده والهزيمة المنكرة التي لحقتهم، وبعد النصر الذي كتبه الله تعالى لبني إسرائيل على أعدائهم؛ هذه الحركة التخريبيّة الواسعة من الداخل بشكل فاعل وقويّ، يندر مثله في حركة التوحيد في تاريخ الأنبياء (ع).

حتميّة الصراع بين التوحيد والشرك

ما هي الأسباب التي تؤدّي إلى حتميّة الصراع بين التوحيد والشرك؟

قدّمنا سابقًا القول بأنّ حركة التوحيد تقوم في المجتمع على أنقاض الكفر والشرك، ولا يقوم للشرك والكفر أساس ولا أثر في حياة الناس إلّا بزوال التوحيد. فكلّ منهما يطرد الآخر ويتمدّد على مساحة نفوذه، وهذا التناقض بين التوحيد والشرك هو الذي يؤكّد حتميّة الصراع بينهما.

كما أن تحقّق هذا الصراع أمر قطعيّ، لأنّ حركة التوحيد تتمدّد على مساحة نفوذ الشرك وسلطانه فتحتلها كلّها، ولا تمتدّ في الفراغ. ومساحة الحياة لا تتّسع للشرك والتوحيد معًا، فإذا تقدّم التوحيد شوطا كان على الشرك أن ينسحب مثله.

ومن مواقع النفوذ والقوّة في المجتمع: الإعلاميّة والسياسيّة، والماليّة، والعسكريّة، والثقافيّة، والإداريّة، ويتحرّك التوحيد باتّجاه بسط نفوذه على هذه المواقع جميعًا. وذلك أنّ هذه المواقع هي التي تمكّن حركة التوحيد من إزالة العقبات التي تعيق إبلاغه، وتنفيذ حدوده تعالى أوّلا؛ وتسمح لها بإبلاغ ثانيًا؛ وتنفيذ هذا الخطاب على وجه الأرض ثالثًا. وهذه ثلاث نقاط لا يمكن أن تتحقّق بغير هذه المواقع.

إنّ صراع حركة التوحيد على مواقع القوّة والنفوذ ليس بَطَرًا ولا رئاءًا، كما لدى الجاهليّة، وإنّما هو وسيلة لتحقيق رسالة التوحيد على وجه الأرض وهي هداية الناس وتطبيق حدوده تعالى في حياة الناس. وهذا هو تفسير صراع التوحيد والشرك (أو الإسلام والجاهليّة) على مواقع القوّة والقرار والمال والإعلام. والرأي القائل بأنّ كلمة التوحيد تتحرّك في حياة الناس وتتبعها إقامة الصلاة وإقامة حدود الله بالوعظ والنصح والإرشاد من دون حرب وقتالٍ تسطيحٌ لهذه القضيّة الحضاريّة المعقّدة، وتبسيط لها. ولو كان كذلكَ لم يدخل رسول الله (ص) في عشرات الغزوات والسرايا خلال عشرة سنوات قضاهنّ في المدينة بعد الهجرة.

إنّ مواقع السلطة والقرار لا يكتسبها الإسلام بغير القوّة، ولا يحافظ عليها من دون القوّة أيضًا.

إذًا، فلكي تنطلق حركة التوحيد على وجه الأرض، لا بدّ أن تنطلق من موقع القوّة والسلطة والقرار، وهذه المواقع ليست شواغر وفراغات بطبيعة الحال، وإنّما يحتلّها الشرك والجاهليّة. فقد كانت مكة موقعًا لنفوذ المشركين، والجزيرة العربيّة موقعًا لنفوذ المشركين واليهود والنصارى، وإيران موقعًا لنفوذ المجوس وسلاطين آل ساسان، وبلاد الشام (الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان) موقعًا لنفوذ الروم الشرقيّة، وهكذا مصر وسائر بلاد شمال أفريقيا والمغرب الإفريقيّ وشرق أفريقيا. ولم يكن الإسلام يتقدّم في هذه الأرض العريضة بغير صراع وقتال. ولو كانت مواقع القوّة في هذه البلاد العريضة التي حرّرها المسلمون خلال أقلّ من قرن باقيةً بيد أقطاب الجاهليّة وأئمّة الكفر، لم يكن بوسع الإسلام أن يزحف إلى هذه الأقاليم العريضة في آسيا وأفريقيا، ويحرّر الناس من الإصر والأغلال في أقلّ من قرن.

ولا يتقدّم الإسلام إلى موقع من هذه المواقع إلّا بانسحاب الجاهليّة من نفس الموقع، فلا يجتمع الإسلام والجاهليّة في موقع واحد للقوّة والقرار أبدًا. والتعايش النصفيّ بين الإسلام والجاهليّة في بعض مواقع القرار في واقعنا السياسيّ اليوم حالة مؤقّتة تعبّر عن تقدّم إحدى الحركتَين وانسحاب الأخرى بالتدريج، وحالة التدرّج حالة مؤقّتة بالضرورة.

وعليه، فإنّ الصراع على موقع القوّة، والقرار، والمال، والإعلام، والعسكر، من حتميّات التاريخ والمجتمع. والقرآن الكريم يقرّر حتميّة الصراع بين هذين المحورَين بشكل جازم، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ

كَانَ ضَعِيفًا ﴾[٢]. ولذلك فالتفكير في اللقاء والتفاهم والحلول النصفيّة مع الكفر والطاغوت تفكير فيه كثير من التسطيح والتبسيط لقضايا الضعف والهزيمة النفسيّة.

وقد صدق ذلك الأعرابيّ الذي اكتشف بفطرته هذه الحقيقة حينما قال: «إنّ هذا الدين تخافه الملوك»، بعد ما سمع آيات من القرآن من رسول الله (ص).

ليس صراع التوحيد والشرك صراع مال وسلطان

وبناءً على هذا الفهم، فلا يمكن أن نقول: إنّ سبب الصراع بين حركتي التوحيد والشرك هو المال والسلطان. لأنّ الصراع بينهما صراع حضاريّ، ليس على مساحة من الأرض وآبار من النفط ليمكن الوصول فيه إلى التفاهم والحلول الوسطيّة، وإنّما على نفي كلّ سلطان وحكم، وحصر الحكم والولاية لله تعالى في حياة الإنسان. ومثل هذا الصراع، الصراع الحضاريّ العميق، لا ينتهي إلا بهدم كلّ سلطان عدا سلطان الله، وتحكيم حكم الله وأمره بشكل مطلق. وهذا الصراع الحضاريّ يكون عادةً صراعًا حضاريًّا شرسًا، أشرس ما في حياة الإنسان. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكافِرون* لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٣].

والأنبياء (ع) في هذا الصراع يطلبون المال والسلطان، بلا ريب، ويستولون عليهما، ولكن ليس لغائيّتهما الذاتيّة في هذا الصراع، بل لأنّ الصراع على حاكميّة الله وسلطانه المطلق ليس صراعًا نظريًّا، وإنّما هو

---

(٢) سورة النساء، الآية ٧٦.

(٣) سورة الكافرون، الآيات ١ إلى ٦.

ميدانيّ، والمال والسلطان من أهمّ العوامل التي تحقّق حاكميّة الله على وجه الأرض.

نعم هناك حالات سلام ومصالحة وتحالف مع الكفر والاستكبار، كما صنع رسول الله (ص) مع قبائل من اليهود ومع قريش، ولكن لا تحمل هذه الحالات معنى إمكانيّة الوصول إلى تفاهم وصلح دائمين مع الكفر، فإنّ الكفر لا محالة يخترق هذه العهود وينقضها، كما صنعوا بعهودهم مع رسول الله (ص). وهذا أمر مؤكّد، وفائدة الصلح والمصالحة أنّها تهيّئ لجبهة التوحيد فترةً من الوقت، تستعيد فيها ما استهلكت الحروب من قدراتها وكفاءتها.

فليس، إذًا، معنى هذا الكلام: إنّ حركة التوحيد لا تدع السلاح، ولا تتقبّل الصلح من أعدائها، أو أنّها تنقض العهود والمواثيق الدوليّة التي تعقدها لإتاحة الفرصة لها لاستعادة قوّتها. كلّا، بل إنّ هذه الحركة تفهم حقيقة العلاقة بين الجبهتَين، ولا تغرّها تصريحات العدوّ السلميّة، وتبقى في ساحة الصراع تستجيب لنداءات الصلح لو وجدت في ذلك مصالحها، وتدخل في عهود هدنة وصلح، ولا تبادر بنقضها أبدًا، ولكنّها في نفس الوقت تعرف أنّ جبهة الاستكبار لا محالة تنقض هذه العهود وتمارس التخريب والإفساد والصدّ عن سبيل الله، وتعدّ العدّة لجولة قادمة.

كيف واجه الإسلام هذين التحدّيين؟

ترسم حركة الأنبياء سنن الصراع في جبهتي التوحيد والشرك، من خارج كيان الدعوة ومن داخله.

وقد واجه الإسلام في المرحلة الأولى من حركة الدعوة التحدّي الأوّل (من الخارج) في مكة والمدينة مع عتاة قريش، وبعد ذلك اتّسعت دائرة

المعركة وشملت اليهود والائتلاف الواسع بين مشركي قريش واليهود في الأحزاب، وانتهى هذا الشوط بهزيمة الشرك وتحالفاته ضدّ حركة التوحيد.

وفي هذه المرحلة، عندما انهزمت الجبهة المعادية للتوحيد هزيمةً منكرة، ولم تعد قادرةً على المقاومة والصمود والمشاكسة في مسيرة الدعوة، كما حدثت هذه الهزيمة في صفوف المشركين والكفّار بعد فتح مكة والطائف، ومثلها في جيش فرعون وملإه بعد ما هلك وجنده في البحر. أقول: عندما تنهزم جبهة الشرك في التقابل مع جبهة التوحيد، لا تعطّل جبهة الشرك مشروعها في التخريب والإفساد في مواجهة التوحيد، وإنّما تبادر بحركة سريعة إلى تغيير موقعها في تخريب الدعوة ومهاجمتها إلى المواجهة من الداخل تحت غطاء الدين. وفي الحقيقة، تنقل هذه الجبهة مهمّتها التخريبيّة من خارج الدعوة إلى داخلها، بعد أن يتبيّن لهم أنّ محاربة الدعوة من الخارج أصبحت أمرًا غير ممكن على الإطلاق. وفي هذه المرحلة، يكون الهدف القضاء على نقاوة الدين وسلامته وأصالته واستقامته وربّانيّته.

وقد وقف أبو سفيان على قبر حمزة (ر) أيّام عثمان، وضربه برجله. وقال: يا أبا عمارة إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلمائنا اليوم يتلعّبون به[٤].

وأبرز مواقع صراع المرحلة الثانية في تاريخ الإسلام «صفّين» و«الطفّ». فهي امتداد لـ«بدر» و«الأحزاب» و«حنين»، فقد تحوّل بذلك المشركون إلى منافقين، يوجّهون ضرباتهم إلى الإسلام من الداخل.

والآن نتساءل: أيّهما أخطر على الإسلام، الذين حاربوا رسول الله (ص) تحت لواء أبي سفيان في بدر وأحد والأحزاب؟ أم الذين حاربوا

---

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الجزء ١٦، الصفحة ١٣٧.

وصيّ رسول الله وابنه في صفّين والطفّ تحت لواء نجل أبي سفيان وحفيده؟ وأيّهما أشرس؟

أحيل الجواب إلى عمّار بن ياسر (ره) في القضيّة التاريخيّة التالية التي يرويها نصر بن مزاحم في كتاب وقعة صفّين. فقد عاش عمّار بن ياسر (ره) المواجهتَين والمعركتين؛ في مرحلة الصراع على التنزيل، وفي مرحلة الصراع على التأويل، وعاش بدرًا وأحدًا والأحزاب وكذا صفّين. يقول عن راية عمرو بن العاص في معركة صفّين لمن تسرّب إلى نفسه الشكّ بعد أن سمعهم يرفعون الآذان، ويقرأون القرآن، ويقيمون الصلاة، كما يرفع الناس في جيش عليّ الآذان، ويقرأون القرآن، ويقيمون الصلاة! قال له عمّار بن ياسر (ره): هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلتي (المقابلة لي) فإنّها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله (ص) ثلاث مرّات وهذه الرابعة، ما هي بخيرهنّ ولا أبرّهنّ، بل هي شرّهن وأفجرهنّ. ثمّ قال له: أشهدت بدرًا وأحدًا وحنينًا أو شهدها لك أب فيخبرك عنها قال: لا. قال: فإنّ مراكزنا على مراكز رايات رسول الله (ص) يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين، وإنّ هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب[٥].

عودة إلى عاشوراء

ذكرنا حتى الآن ثلاث نقاط:

١. إنّ الصراع بين التوحيد والشرك صراع حضاريّ ليس على مال أو سلطان، وإن كانت حركة التوحيد تطلبها لتصل بهما إلى المبادئ والقيم والأصول.

٢. إنّ هذا الصراع صراع حتميّ، لابدّ منه، ولا يخلو منه التاريخ.

---

(٥) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، الصفحة ٣٢١.

٣. الصراع بين التوحيد والشرك يمرّ بمرحلتَين؛ مرحلة التنزيل ومرحلة التأويل. ولا تقلّ خطورة وضراوة هذه المعركة، في كلتا المرحلتين.

والآن نقول: إنّ الذين حاربوا رسول الله (ص) في بدر وحنين لم يتحوّلوا عن مواقعهم ومراكزهم كما يقول عمار (ره) في صفّين، وتعبيره دقيق «على مراكزهم يوم بدر وأحد». هؤلاء دخلوا الإسلام مرغمين، لكنّهم التفّوا عليه في صفّين والطفّ، وسعوا لاستعادة أمرَين:

١. مواقعهم التي سلبها الإسلام عنهم.

٢. القيم الجاهليّة والعشائريّة والطبقيّة، والمنكرات التي كانوا يمارسونها قبل الإسلام.

حاولوا أن يستعيدوا كلّ ذلك من خلال الإسلام، وباسمه وتحت غطائه وبإسم التوحيد، لا باسم الجاهليّة. وهذا هو الخطر الحقيقيّ الذي كان يهدّد الإسلام والذي عرفه عليّ والحسن والحسين (ع)، فحاولوا مواجهته في صفّين وكربلاء.

الدور التخريبيّ لبني أميّة في الإسلام

بنو أمية لم يكن تجمّعًا ساذجًا وبسيطًا بل سياسيًّا وحركيًّا. وقد كانوا حركةً سياسيّةً بالتعبير الدقيق للكلمة، تخطّط لاستعادة مواقعها السياسيّة والسلطويّة في المجتمع الإسلاميّ. وكان أبو سفيان الرأس، والعقل المخطّط لهذا الأمر، ومعاوية العقل الثاني، وعمرو بن العاص العقل الثالث، الذي كان في خدمة بني أميّة وإن لم يكن منهم.

أمّا أبو سفيان، العقل السياسيّ لبني أميّة، فكان يخطّط لكي يصل الأمويّون إلى الحكم. وعندما تولّى الخليفة الثالث أمور المسلمين، دخل

على عثمان وقال: قد صارت إليك بعد تيم وعديّ، فأدرها كالكرّة، واجعل أوتادها بني أميّة، فإنّما هو الملك ولا أدري ما جنّة ولا نار. فصاح به عثمان: قم فعل الله بك وفعل[6].

وقد عمل بنو أميّة على عزل الطبقة المستضعفة الصالحة التي رفعها الإسلام إلى قمّة الهرم الاجتماعيّ، مثل سلمان وأبي ذرّ وعمّار، وعزلهم عنها عزلًا كاملا. وأعادوا إلى القمّة الطبقة التي وضعها الإسلام، واستعادت هذه الطبقة كلّ مواقعها في عهد معاوية ويزيد وما بعد ذلك، ومعها قيم الجاهليّة ومنكراتها وأعرافها. والفرق بين معاوية ويزيد، أنّ يزيد كان يأتي بالمنكرات جهارًا، أمّا معاوية فمارسها خفاءً. ولقد نصح معاوية ابنه يزيد أن لا يتكلّم بشربه ولهوه وفسقه ولا يجاهر بها فلم يأخذ يزيد بنصيحة أبيه، فأنشده معاوية - والشعر من نظمه - قائلًا:

أُنصب نهارك في طلاب العُلى	واصبر على هجر الحبيب
حتّى إذا الليل أتى بالدُّجا	واكتملت بالغمض عين الرقيب
فباشِر الليل بما تشتهي	فإنّما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكًا	قد باشر الليل بأمر عجيب
غطّى عليه الليل أستاره	فبات في أمن وعيش خصيب
ولذّة الأحمق مكشوفة	يسعى بها كلّ عدوّ مريب[7]

فاقرأوا **الأغاني** لأبي الفرج، و**تاريخ دمشق** لابن عساكر، لتعرفوا كيف حاولوا أن يحطّوا من مكانة رسول الله (ص). وقد كان الحجّاج يقول: «إنّ خليفة أحدكم خير من رسوله[8]»، مشيرًا إلى أنّ الخليفة أفضل من رسول

---

(٦) ابن عبد البرّ، **الاستيعاب**، الجزء ٤، الصفحة ٨٧.

(٧) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، الجزء ٦٥، الصفحة ٤٠٣؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء ٨، الصفحة ٢٥٠.

(٨) ابن بدران، **تهذيب تاريخ دمشق**، الجزء ٤، الصفحة ٧٢؛ شرح **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء

الله (ص). وقد حاولوا إثارة النعرة القوميّة فيما بين المسلمين والتمييز فيما بين المسلمين العرب وغير العرب من الموالي، ومحاولة طرد المسلمين من غير العرب من الساحة السياسيّة، بل من حواضر العالم الإسلاميّ أحيانًا، كما حدث في عهد معاوية والحجّاج، وعدم الاعتراف بإسلامهم لئلّا تسقط عنهم الجزية.

كما كانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلّا ثلاثة: كلب أو حمار أو مولى. وكانوا يمارسون إذلال الأمّة بالإرهاب. وقد سلك حكّام بني أميّة مسالك عجيبةً في إذلال الأمّة وتحطيم معنويّاتها لغرض السيطرة عليها، وتمكين قبضتهم منها، وتصفية كلّ حالات المعارضة والتمرّد ضدّ النظام. وبلغ بهم الأمر أنّهم كانوا يمارسون استرقاق المسلمين، وسبي المسلمات المؤمنات، واسترقاقهنّ، وعرضهنّ في الأسواق.

ويعتبر بسر بن أرطأة أوّل من اقترف هذه الجريمة في تاريخ الإسلام، فسبى المؤمنات من همدان المعروفة بولائها لأهل البيت (ع)، وعرَضَهُنّ في الأسواق للبيع، وكان الناس يكشفون عن سيقانهنّ ليشتروهنّ، كما يصنع تجّار الرقيق في أسواق النخاسة. وكذا فعل أيضاً عندما أرسله معاوية إلى اليمن بالمسلمات المؤمنات اليمانيّات، سباهنّ وأقامهنّ في الأسواق للبيع. وقد شرحنا ذلك كلّه ووثّقناه في كتاب **وارث الأنبياء** بالتفصيل، فراجع إن شئت الإيضاح.

هكذا كانت سيرة بني أميّة في إذلال المسلمين، وقد أسرفوا في ذلك أيّما إسراف، حتّى قالوا: إنّ بني أميّة كانت تبيع الرجل في دين يلزمه، وترى إنّه يصير بذلك رقيقًا[9].

١٥، الصفحة ٢٤٢؛ شمس الدين القيسي الدمشقي، **توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة**، الجزء ١، الصفحة ٢٠٨.

(٩) **شرح نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١٥، الصفحتان ٢٤١ و٢٤٢.

وأفظع من ذلك كلّه وأبلغ في إذلال المسلمين، ما كان من فعل مسلم بن عقبة، وكان يسمّى بمسرف، قائد جيش بني أميّة في عهد يزيد بن معاوية إلى المدينة المنوّرة، في وقعة الحرّة المعروفة، عندما احتلّ يزيد المدينة المنوّرة، وأباحها لجيشه، دعا المسلمين إلى بيعة يزيد بن معاوية على دمائهم وأموالهم وأهليهم، وأنّهم عبيد ليزيد بن معاوية يقضي في دمائهم وأموالهم وأنفسهم بما شاء[10]. وعلى هذه الطريقة، جرى بنو أميّة في إذلال المسلمين وإخضاعهم لنزواتهم ورغباتهم، وتصفية حالات المعارضة السياسيّة والعسكريّة، وتحكيم قبضتهم على مصائر الناس وأقدارهم[11]. وكانوا يمارسون ألوان الدعارة والابتذال في قصورهم. ولعلّ الخلاعة والمجون من أبرز سمات بني أميّة. وقد دخل الغناء والطرب والشرب والسكر والاستهتار على أيدي بني أميّة إلى الإسلام من باب واسع، حتّى أنّهم كانوا يمارسون الغناء والطرب واستدعاء المغنّين والمطربين في نوادي مفتوحة للطرب في خيام منى وسرادقاتها (قلعة التوحيد والعبادة).

وزاول حكّام بني أميّة ألوانًا مختلفةً من اللهو والمجون والخلاعة على مرأى ومسمع من المسلمين بصورة مكشوفة وعارية، وأدخلوا الفساد إلى قصر الخلافة بأبشع صوره وأشكاله. وكان الشرب والسكر أمرًا شائعًا في قصورهم. وكان معاوية أوّل خليفة يدخل الخمر في قصره[12] ويمارس هذا المنكر في الخفاء، فلمّا تولى يزيد ابنه أمر الخلافة أعلن هذا المنكر جهاراً، وجرى من بعده خلفاء بني أميّة مجراه، إلاّ ما كان من أمر عمر بن عبد العزيز.

---

(١٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء ٤، الصفحة ١١٨؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، الجزء ١، الصفحة ٢١٤؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الجزء ٢، الصفحة ٢٣٧؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، الجزء ٣، الصفحة ٧٠.

(١١) محمّد مهدي الآصفي، وارث الأنبياء، الصفحات ٦٥ إلى ٦٧.

(١٢) المصدر نفسه، الصفحة ٤٩.

يقول الجاحظ: وكان يزيد لا يمسي إلّا سكرانًا، ولا يصبح إلّا مخمورًا. وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كلّ شهر مرّة حتّى لا يعقل في السماء هو أو في الماء. وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يومًا ويدع يومًا. وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كلّ ثلاث ليالٍ ليلة. وكان هشام يشرب في كلّ جمعة. وكان يزيد بن الوليد، والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب. فأمّا يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتَي سكر وخمار، ولا يوجد أبدًا إلّا ومعه إحدى هاتين، وكان مروان بن محمّد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت[١٣].

وقد خرجت ظاهرة الشرب والسكر عند الخلفاء في عهد يزيد بن معاوية من طور الكتمان إلى طور الإعلان والإجهار، وكان يزيد بن معاوية أوّل خليفة يعلن اقتراف هذا المنكر إعلانًا، ويتحدّى به مشاعر المسلمين[١٤].

وأمّا الغناء، فقد ولع به حكّام بني أميّة وكان يحمل إلى قصر الخليفة المغنّون من سائر البلاد، فيستمع إليهم الخليفة فيجيزهم من أموال بيت مال المسلمين المبالغ الكبيرة، ويستبقي عنده من ينتقي منهم، ويصرف منهم من يشاء.

وأمّا عن مجون الخلفاء من بني أميّة وخلاعتهم واستهتارهم فحدّث ولا حرج، وما نقرأه في التاريخ لا يكاد أن يصدّقه الإنسان، لولا أنّ المؤرّخين من كلّ المذاهب يتّفقون على مجمل ما كان يجري في قصر الخلافة الأمويّة من مجون وخلاعة[١٥].

---

(١٣) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، الصفحة ١٥١.

(١٤) وارث الأنبياء، مصدر سابق، الصفحة ٥١.

(١٥) راجع، ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء ٨، الصفحة ١٤٠؛ وأيضًا، الأصفهاني، الأغاني، الصفحات ١٧ و٤٧ و٥٩ إلى ٦١. وقد شرحنا طرفًا من فساد بني أميّة وعبثهم بالإسلام في وارث الأنبياء ووثّقناه بالمصادر بصورة عمليّة، فراجع.

وقد كان كلّ ذلك يتمّ من خلال موقع الخلافة الإسلاميّة، خلافة رسول الله (ص). لقد كان الخطّ الأمويّ تهديدًا حقيقيًا للإسلام في الصميم. وقد عرف الحسين (ع) هذه الحقائق جميعًا، فنهض للمحافظة على الإسلام من عبث بني أميّة وفسادهم.

كيف ولماذا واجههم الحسين (ع) في كربلاء؟

اهتمّ الحسين (ع) بإسقاط آل أميّة، وسلب الصفة الشرعيّة عنهم، وتجريدهم عن موقع تلك الشرعيّة. وذلك أنّ هذا الانحراف كان ينحدر من موقع الخلافة الإسلاميّة، الذي كان يمتلك في نفوس المسلمين رصيدًا كبيرًا من الشرعيّة والقدسيّة، وقد كان بنو أميّة يعتمدون عنصر الشرعيّة في موقعهم السياسيّ والاجتماعيّ كثيرًا، وكانوا يوحون إلى الناس بطريق أو بآخر أنّ موقع الخلافة أرفع من موقع الرسالة.

كما كانوا يرون في هذا الموقع أداةً قويّةً مؤثّرةً لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، بأيسر الطرق وأسهلها. لذلك دأب معاوية التسلّط على هذا الموقع لنفسه ولابنه يزيد من بعده ولبني أميّة من بعد يزيد.

وكان هذا الموقع، الذي حرص عليه حكّام بني أميّة، من أكبر الأخطار التي تلحق الإسلام من جانب حكومة بني أميّة. فقد كان هناك في قصور الخلفاء من يبرّر ويوجّه هذا الانحراف، ويعطيه الصبغة الشرعيّة من علماء البلاط. وبالتالي، ينعكس هذا الانحراف وينسحب على الإسلام، فيفقده بذلك أصالته ونقاءه على أوسع صعيد وهو وسط الأمّة.

وقد حرص الإمام (ع) في حركته على كسر هذا الإطار الشرعيّ الذي كان يحتمي به حكام بني أميّة، وسلب صفة الشرعيّة من هذه الحكومة، وتجريدها عن القدسيّة الشرعيّة التي كانوا يحرصون عليها كلّ الحرص. وبالتالي تفويت الفرصة على الحكم الأمويّ في تحريف الإسلام. وكان

الإمام يجاهر بهذه الحقيقة جهارًا، ويعلن رأيه في يزيد، وعدم أهليّته للخلافة، وينال منه كلّما واتته فرصة. وقد ذكر هذا في يزيد عندما دعاه الوليد بن عتبة للبيعة، ومروان حاضر، قال (ع) له بعد كلام طويل، وهو يريد أن يُسمع مروان رأيه في يزيد، وموقفه من البيعة:

أيّها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس، معلن بالفسق، فمثلي لا يبايع مثله[16].

وخاطب معاوية، عندما خاطبه في أمر ولاية العهد ليزيد من بعده، ومَدَحَهُ للحسين (ع):

وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمّة محمد (ص)، أتريد أن توهم الناس في يزيد، كأنّك تصف محجوبًا، أو تنعت غائبًا، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه. فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهنّ والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده باصرًا ودع عنك ما تحاول.

وما أغناك أن تلقى الله عزّوجل (من) جور هذا الخلق بأكثر ممّا أنت لاقيه... وما بينك وبين الموت إلّا غمضة[17].

وقد كان لخروج الإمام (ع) على يزيد، ومحاربته لجيش ابن زياد بعد رفض البيعة، واستشهاده هو وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة على يد جيش الخلافة أثر كبير في إسقاط شرعيّة الخلافة، وتجريدها عن الشرعيّة والقدسيّة التي كانت تتمتّع بها[18].

(١٦) الخوارزمي، مقتل الحسين (ع)، تحقيق محمّد السماوي، الجزء ١، الصفحة ١٨٤.

(١٧) الإمامة والسياسة، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٨٦؛ تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٢٢٨؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة، الجزء ١، الصفحة ٥٨٣؛ العلّامة الأميني، الغدير، الجزء ١٠، الصفحة ٢٤٨.

(١٨) وارث الأنبياء، مصدر سابق، الصفحات ٢١٩ إلى ٢٢١.

ومن هذا المنطلق، نقول: إنّ مهمّة عاشوراء وكربلاء كانت، بالدقّة، انتزاع صفة الشرعيّة عن آل أميّة، وتجريدهم من الشرعيّة الإسلاميّة.

عودة إلى الدكتور عبد العظيم الديب

يقول الدكتور عبد العظيم الديب أنّ كربلاء عثرة على الطريق. أقول: إذا كان يقصد بالعثرة بني أميّة فإنّه لم يفهم دور بني أميّة في تخريب الإسلام، فبنو أميّة لم يكونوا عثرةً بل كانوا عقبة. وإذا كان يقصد بذلك وقعة كربلاء، فهو لم يفهم التاريخ ولا الإسلام. إذ لو كان لبني أميّة أن يمضوا طريقهم، ويستبدلوا ما شاءوا من قيم الإسلام وأفكاره من موقع الشرعيّة، لما بقي اليوم من الإسلام شيء.

إنّ نقاء الإسلام الذي يعرفه المسلمون جميعًا – شيعةً وسُنّة – بمفاهيمه النقيّة الناصعة، هو من بركات نهضة الحسين (ع)، ابن رسول الله (ص) وحبيبه.

لقد أفلح الحسين (ع) في إسقاط شرعيّة بني أميّة، ومنذ عاشوراء نجد في الإسلام خطّين: خطّ الخلفاء، وخطّ الفقهاء. ونجد أنّ الثاني يحاول الابتعاد عن الأوّل. بينما كان الأمر قبل كربلاء على شاكلة أخرى، فقد كانت الخلافة تمثّل كلّ الشرعيّة الإسلاميّة وتمثّل السيادة والشرعيّة في وقت واحد، فتمثّل شرعيّة الفقيه والحاكم معًا. كان الخليفة يمثّل دورَين متضامنَين؛ الشرعيّة والحاكميّة. وبعد حادثة كربلاء تجرّدت الخلافة الأمويّة عن الجانب الفقهيّ الشرعيّ، وبقي للخلفاء ممارسة السلطان والسيادة الزمنيّة، كما يمارسه الحكام في سائر الأنظمة، وتكوّن إلى جانب الخلفاء خطّ آخر هو خطّ الفقهاء وكان الناس يستمدّون الشرعيّة من هذا الخطّ، وكان الفقهاء يحرصون أن يبتعدوا عن الخلفاء، وعلى قدر بعدهم عن الخلفاء كان الناس يقبلون عليهم، وهكذا جرّدت كربلاء خلفاء بني

أميّة من صبغة خلافة رسول الله (ص)، ولم يبقَ لهم من هذا العنوان الرفيع إلّا الاسم، وهذا هو الأمر الذي حصل في كربلاء، إذ حفظت الإسلامَ من أن يتسرّب إليه الانحراف والعبث والفساد من جانب خلفاء أميّة وقصورهم، ولهوهم وفجورهم، وظلمهم واستهتارهم.

الفئات المعارضة لخروج الحسين (ع)
دراسة وتحليل

سيرة الحسين (ع) من الحجاز إلى العراق، وشهادته وشهادة الكوكبة التي حفّت به في الحركة إلى لقاء الله من أهل بيته وأصحابه، سيرة غنيّة بالأفكار والمفاهيم التي تتّصل، في الغالب، بحياتنا اليوميّة، في حقول السياسة والثقافة والعلاقات الاجتماعيّة.

ولذلك فهي تستحقّ الكثير من التوقّف والتأمّل والدراسة، ورغم الدراسات الكثيرة لـ«عاشوراء»، فلا يزال هذا الحدث العظيم يكتنز الكثير من المفاهيم والأفكار والقيم، ويجد الباحث في موضوعة عاشوراء آفاقًا ورؤًى جديدةً لم يكتشفها الباحثون والمنظّرون إلى هذا اليوم.

ونحن، هنا، سنحاول أن نلقي نظرةً على الجماعات المعارضة لخروج الحسين (ع) من الحجاز إلى العراق لإعلان الخروج والثورة على حكومة بني أميّة.

تصنيف الناس تجاه الثورة الحسينيّة

بإمكاننا أن نصنّف الناس، من حيث موقعهم من الحسين (ع) في عاشوراء، إلى خمسة أصناف:

١. أهل بيت الحسين (ع) وأصحابه الذين صحبوه إلى لقاء الله، وهم القمّة الشامخة التي يعرف التاريخ من تساميها وعلوّها على الدنيا، والتضحيّة والإيثار والعطاء والصمود والقيم والإخلاص.

٢. الفئات المعارضة التي كانت تعارض خروج الإمام إلى العراق للخروج على حكومة بني أميّة، إشفاقًا على الإمام (ع) حينًا، وتظاهرًا بالإشفاق حينًا آخر.

٣. المتفرّجون، وهم الكثرة الكاثرة من الأمّة يومذاك. وقد علموا أنّ

الحسين (ع) خرج على طاغية عصره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعرفوا ما يقترفه بنو أميّة من الإثم والعدوان في الأمّة، والتبذير والبذخ في بيت المال والإفساد في الساحة، ولكنّهم آثروا العافية ووقفوا موقف المتفرّج ينتظرون نهاية هذا المشهد الأليم، «إنّا ههنا قاعدون».

٤ . القتلة الذين اقترفت أياديهم قتل ابن رسول الله والكوكبة الطاهرة التي رافقته إلى الله، وإذا كانت الفئة الأولى قمّةً في التوحيد والإخلاص والقيم والخلق والصمود والعطاء والوعي، فهذه الفئة في حضيض السقوط والشقاء والبؤس.

٥ . الفئة الخامسة هي التي لم تشارك في القتال، ولكنّها أعلنت عن رضاها ودعمها وإسنادها للقتلة، وتنكرت لخروج السبط الشهيد على حكومة بني أميّة.

وكلّ واحدة من هذه الفئات الخمسة تحتاج إلى دراسة دقيقة وتوقّف وتأمّل طويلَين. ولا تقلّ حاجتنا إلى دراسة الفئات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة عن حاجتنا إلى دراسة الفئة الأولى. فإنّ هذه الدراسة، بأبعادها الخمسة، لصيقة الصلة بحياتنا السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة. وفيما يلي وقفة وتأمّل لدراسة الجماعات المعارضة لخروج الحسين (ع) من الحجاز إلى العراق.

١ . تصنيف المعارضة

تعكس دراسة الساحة المعارضة لخروج الحسين (ع) والمثبطين والمعارضين صورةً دقيقةً عن الأوساط المعارضة للعمل الإسلاميّ والحركة والثورة الإسلاميّة في الساحة الإسلاميّة المعاصرة. إنّ التثبيط نفسُ التثبيط، والمعارضة نفسها، وعوامل ومصادر المعارضة للثورة نفسها.

يريد الحسين (ع) الخروج على طاغوت عصره فيواجه مساحةً واسعةً من المعارضة، كما تواجه القيادات الإسلاميّة للثورة الإسلاميّة نفسها هذه المعارضة عند أيّ تحرّك سياسيّ. وأسباب هذه المعارضة وعواملها في الساحة السياسيّة يومذاك ثلاثة:

١. الحسد والضغينة.

٢. الضعف والجبن والتخاذل.

٣. الجهل وفقدان الوعي السياسيّ.

وسوف نذكر أمثلةً على هذه العوامل الثلاثة.

١. أ. العامل الأوّل للمعارضة: العداء والحسد والحقد

من أبرز مصاديق هذه الحالة عمرو بن سعيد الأشدق عامل بني أميّة على مكّة، فقد كتب إلى الحسين (ع) عندما علم بخروجه (ع) إلى العراق يطلب منه أن يعدل عنه ويعده بالأمان.

وعلى هذه الرسالة مسحة خفيفة من النصيحة الكاذبة، كما تستبطن الكثير من المكر والكيد والخبث والحقد. وقد قرأ الحسين (ع) هذه الرسالة وردّها بأدب وصرامة وقوّة كعادته (ع) في مواجهة أمثال هذه الحالات، وإليك الرسالة وردّها.

يقول عمرو بن سعيد الأشدق في رسالته إلى الإمام الحسين (ع):

إنّي أسأل الله أن يلهمك رشدك، وأن يعرّفك عمّا يُراد بك، بلغني أنّك قد عزمت على الشخوص إلى العراق، فإنّي أعيذك بالله من الشقاق، فإن كنت خائفًا فأقبل إليّ فلك عندي الأمان والصلة.

فكتب إليه الحسين (ع):

أمّا بعد، فإنّه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عزّ وجلّ وعمل صالحًا، وقال إنّني من المسلمين. وقد دعوتَ إلى الأمان والبرّ والصلة فخير الأمان أمان الله عزّ وجلّ، ولم يؤمّن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافةً في الدنيا توجب لنا أمانةً يوم القيامة.

فإن كنت نويت بالكتاب صلتي وبرّي فجزيت في الدنيا والآخرة والسلام[1].

والذي يستعرض موقف عمرو بن سعيد الأشدق لا يشكّ أنّ الأشدق كان يدبّر للحسين (ع) مؤامرةً يعيده فيها إلى مكّة ليغتاله في الحرم، فلا يستطيع (ع) أن يقاتل بني أميّة، والحسين (ع) يأبى أن يُقتل في الحرم مكتوف اليدَين.

ولا نحتاج طويل تأمّل لنعرف أنّ أسلوب الحسين (ع) في الخروج من المدينة إلى مكّة على الطّريق العامّ (الجادّة الرئيسيّة بين مكة والمدينة)، ثمّ مقامه في مكة بدار العبّاس بن عبد المطّلب، وإعلانه للمغادرة إلى العراق، كان بهدف التعبير والإعلان عن رفضه للبيعة، فلو كان الإمام يريد أن يتجنّب البيعة فقط، دون تنبيه المسلمين إلى هذا الموقف السياسيّ لما احتاج إلى كلّ هذه الخطوات التي كلّفته وكلّفت أهل بيته وأصحابه كثيرًا، وأثارت عليه سخط بني أميّة وغضبهم، وكان بوسعه أن يعتزل بني أميّة في صقع من أصقاع الأرض، من دون هذا الإعلان والإشهار.

وقد اتّفقت المصادر التاريخيّة أنّ الحسين (ع) خرج من مكّة إلى العراق يوم الثامن من ذي الحجّة (يوم التروية)، عندما كان الحجّاج يتوجّهون إلى عرفة، وقد أثار خروج ابن بنت رسول الله (ص) من بين الحجّاج إلى العراق يوم التروية انتباه عامّة الحجّاج الذين كانوا قد أمّوا البيت الحرام من مختلف الآفاق. فهذا ابن بنت رسول الله (ص) يحلّ من

---

(١) وقعة الطفّ المستخرجة من تاريخ الطبري تحقيق الشيخ هادي اليوسفي: ١٥٥ ط. مؤسسة النشر الإسلامي. وبلفظ قريب منه تاريخ ابن عساكر ١٣: ٧٠.

العمرة ويغادر مكّة في وقت يتوجّه فيه الحجّاج إلى عرفة لأداء الحجّ[٢].

١ . ب. العامل الثاني للمعارضة: الضعف عن القرار الصعب

وهو من أقوى عوامل التثبيط. ونضرب مثلًا لذلك موقف عبد الله بن عمر من المعارضة.

نحن لا نستطيع أن نتّهم عبد الله بالمكر بالحسين (ع)، ولكن نجد في موقفه من معارضة حركته علامة ضعف واضحة. فقد كان عبد الله ضعيف الشّخصيّة، وضعفه جرّ عليه كثيرًا من الابتلاءات، فقد امتنع أوّلًا عندما رشّح معاوية ابنه يزيد لولاية العهد عن البيعة وقال: إنّه لا يبايع لأميرَين في وقت واحد[٣]. وهو موقف ضعيف منه إذ معاوية لم يطلب منه أن يبايع يزيد أميرًا ليصحّ منه هذا العذر، إنما طلب منه أن يبايعه وليًّا للعهد.

كما أنّه لم يكن يملك القوّة والجرأة الكافية التي تمكّنه من اتّخاذ موقف جريء تجاه البيعة ليزيد، فقد كان أمر يزيد في الفسق والشرب أشهر من أن يخفى على أحد، وقد كان أولى بابن عمر أن يردّ معاوية عن هذا الأمر، ويعلن امتناعه عن البيعة .

لكنّه اعتذر لمعاوية بهذا الجواب الضعيف. فأرسل إليه معاوية بمئة ألف درهم فأخذها، فدسّ إليه رجلًا فقال له: ما يمنعك أن تبايع؟ فقال: إن ذاك لذاك (يعني أن ذلك المال لأجل البيعة) إنّ ديني إذن لرخيص[٤]. ولم يروِ لنا التاريخ أنّه ردّ المال أو أنكر على معاوية هذا الأسلوب الملتوي

(٢) محمّد مهدي الآصفي، في رحاب عاشوراء، الصفحتان ٣٥٦ و٣٥٧.
(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الجزء ١٣، الصفحة ٦٠ .
(٤) المصدر نفسه.

الماكر في أخذ البيعة ليزيد(٥).

كما أنّ في موقفه من الحسين (ع) غطاء رقيق من النصح بالإضافة إلى إيهام بأنّه خروج عمّا دخل فيه المسلمون، وفيه دعم وتأييد لسلطان يزيد. وقد استدرج هذا الموقف عبد الله إلى دعم وتأييد يزيد بصورة تدريجيّة، وأدّى إلى استحداث مذهب سياسيّ فقهيّ ابتدعه عبد الله ودخل من خلال رواياته في الثقافة الإسلاميّة، وهذا المذهب هو مهادنة الظالم والسكوت عنه وتحريم الخروج عليه.

فالمعروف أنّه كان يرى وجوب الانقياد للحاكم، مهما كان ظلمه، ومهما بلغ جوره واعتداؤه على المسلمين وإعلانه للفسق والفجور، ويرى وجوب الاستمرار في الطاعة، وحرمة خلع اليد منها، وكان يسعى برأيه هذا فيما بين الناس ويروّض الناس لطاعة الخليفة الفاسق يزيد بن معاوية قبل وبعد وقعة الحرّة التي انتهك فيها يزيد بن معاوية حرمات الإسلام والمسلمين، وبالغ في سفك الدماء وانتهاك الحرمات. فاستمع إلى الحديث التالي:

روى مسلم عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله (ص) قال:

ما من نبيّ بعثه الله في أمّة قبلي إلّا كان في أمّته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثمّ إنّها تخلّف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل.

قال أبو رافع: فحدّثت عبد الله بن عمر فأنكره عليّ، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة، فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر يعوده، فانطلقت معه

(٥) محمّد مهدي الآصفي، وارث الأنبياء، الصفحتان ١٥٣ و١٥٤.

فلمّا جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدّثنيه، كما حدثت ابن عمر[٦].

إنّ من حقّنا أن نسمح لأنفسنا بالشكّ في موقف عبد الله بن عمر من شرعيّة الخروج والمعارضة السياسيّة والمسلحة للحكام الظلمة، وفي موقفه الاستسلاميّ من قبل، من البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية من دون اعتراض أو تردّد، وفي موقفه الضعيف الأوّل من قبول هديّة معاوية والاعتذار إليه بأنّه لا يريد أن يبايع لأميرَين في وقت واحد.

وإنّ من حقّنا أن نحتمل أنّ معاوية قد استغلّ ضعف عبد الله وسذاجته أسوأ استغلال، وأن يلين عوده للبيعة ليزيد ويروّضه على ذلك بأساليبه الماكرة الملتوية المعروفة، والتي لم تخفَ حتّى على عبد الله بن عمر نفسه، بما عرف من بساطة وسذاجة، حتّى قال لرسول معاوية: «إنّ ذاك لذاك، إنّ ديني عندي إذن لرخيص»[٧].

١.ج. العامل الثالث للمعارضة: عدم وعي أهداف الثورة

لقد تصوّر البعض أنّ الإمام الحسين (ع) خرج على يزيد لينتزع منه الحكم والسلطان، وليتولاه بنفسه، فهو حقّه، دون يزيد.

وكان هؤلاء يعرفون جيّدًا أنّ أهل العراق لا يفون للحسين (ع) عهودهم و سيتخلّون عنه إذا مضى (ع) تلبية لدعواتهم سيقف معه قلّة لا تقاوم جيوش بني أميّة. إذًا، الإمام (ع) يسعى بنفسه في هذه الرحلة إلى مصرعه، وكان ذلك يحزّ في أنفسهم ويحزنهم فيقبلون عليه، ويسألونه أن يكفّ عن الذهاب إلى العراق.

---

(٦) أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، الجزء١، «كتاب الإيمان»، «باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان»، الصفحتان ٥٠ و٥١.

(٧) **وارث الأنبياء**، مصدر سابق، الصفحة ١٥٦.

ولم يكن يخفى على الإمام (ع) ما يعرفه هؤلاء الناصحون له، الذين لم يكن الإمام يشكّ في صدقهم ونصحهم وحبّهم.

ولا يمكن أن نتصوّر أنّ الإمام (ع) كان يرجو فيمن يجتمع حوله من شيعته في العراق أن يقاوم بهم جيوش الشام، فضلًا عن العراق. وقد عاش (ع) من قبل ظروف تخاذل الناس في العراق عن أبيه في صفين وعن أخيه الحسن (ع) بعد وفاة أبيه. فماذا يمكن أن يرجو في الناس بعد هاتين التجربتَين.

لقد كان الإمام يطلب في خروجه أمرًا آخر، يختلف كثيرًا عمّا كان يتصوّر عبد الله بن عبّاس وعبد الله بن جعفر ومحمّد بن الحنفية ونظراؤهم من الناصحين له. كان يطلب في خروجه أن يهزّ ضمير الأمّة بملحمة مأساويّة تنتهي بمصرعه وبمصرع أهل بيته وأصحابه في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإنكار على يزيد وإدانته، فيرتاع الناس لذلك ويعودون إلى أنفسهم ورشدهم، ويحيي بذلك تلك الفريضة، ليواجه الناس بها طغاة بني أميّة ويكسر حاجز الرهبة والخوف، ويسقط شرعيّة الخلافة الأمويّة في أنظار المسلمين، ويجرّدها عن قيمتها الشرعيّة التي كان الناس يعرفونها من قبل للخلفاء.

إذًا لم يكن الإمام يطلب في خروجه زحفًا عسكريًّا على جيش الشام وحكامه كما يصنع القادة العسكريّون، ولو كان يطلب شيئًا من ذلك لكان الحقّ لأولئك الذين كانوا ينصحون الإمام بالامتناع عن الخروج إلى العراق.

وليس نوعًا من التوجيه السياسيّ والثقافيّ لخروج الحسين (ع) بعد مصرعه الدامي في كربلاء، ومصرع أنصاره رحمهم الله، وإنّما نقتبس من آخر خطاب ألقاه في الناس في مكة، عند خروجه إلى العراق حيث نعى نفسه وأهل بيته وأصحابه إلى المسلمين يومئذٍ، بل هو تفسيرٌ آخر أعلنه

وصرّح به، ولم يتفقّهه الناس من حوله يومذاك.

كما لا يمكن أن يقدم على هذا العمل قائد عسكريّ ينوي أن يخرج على طاغية عصره لينتزع منه الحكم والسلطان، ويحلّ محلّه. إنّ هذا الخطاب في عرف القادة العسكريّين تثبيط للناس، وليس دعوةً إلى الخروج على الحاكم الظالم.

هؤلاء طائفة ثالثة من المثبطين للحسين (ع) والمعارضين لخروجه. ونحن لا نتّهم هؤلاء بالعداوة ولا بالضعف، ويكفي أنّ فيهم عبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن جعفر، ومحمّد بن الحنفيّة رحمهم الله. إلّا أنّنا لا نشكّ في أنّهم لم يستوعبوا حركة الحسين (ع)، وقضيّة معارضتهم كانت نابعة من هذه النقطة.

وفيما يلي نضرب بعض الأمثلة ونأتي ببعض الشواهد على هذه الطائفة من الذين نصحوا الإمام (ع) بعدم الخروج، وعزّ عليهم أن يخرج ابن رسول الله (ص) إلى مصرعه. من هؤلاء الناصحين:

١. المسور بن مخرمة

ذعر المسور بن مخرمة[٨] حينما سمع بعزم الإمام على مغادرة الحجاز والتوجّه إلى العراق فكتب إليه هذه الرسالة:

> إيّاك أن تغترّ بكتب أهل العراق، ويقول لك ابن الزبير: الحق بهم فإنّهم ناصروك، إيّاك أن تبرح الحرم، فإنّهم [أي أهل العراق] إن كانت لهم بك حاجة فسيضربون آباط الإبل حتّى يوافوك، فتخرج إليهم في قوّة وعدّة.

ولمّا قرأ الإمام رسالته أثنى عليه: وقال لرسوله: «أستخير الله في

(٨) المسور بن مخرمة بن نوفل القرشي الزهري، ولد بعد الهجرة بسنتين، وقد روى عن النبيّ (ص)، وكان من أهل الفضل والدين، كان مع ابن الزبير فلمّا كان حصار مكة أصابه حجر من حجارة المنجنيق فتوفي. جاء ذلك في كتاب **الإصابة في تمييز الصحابة** لابن حجر العسقلاني، الجزء ٣، الصفحة ٤٠٠.

ذلك»[٩].

٢. عبد الله بن جعفر

وخاف عبد الله بن جعفر على ابن عمّه حينما علم بعزمه التوجّه إلى العراق، وشقّ عليه ذلك، فبعث إليه بابنَيه عون ومحمّد، وكتب معهما هذه الرسالة:

أمّا بعد، فإنّي أسألك الله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا فإنّي مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم أطفأ نور الأرض فإنّك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإنّي في أثر كتابي والسلام.

وأسرع ابن جعفر وهو خائر القوى ذاهل اللبّ إلى عمرو بن سعيد حاكم مكة فأخذ منه كتابًا فيه أمان للحسين (ع)، وجاء مسرعًا إليه وكان معه يحيى بن سعيد بن العاص، فعرض عليه الإقامة في مكة وعدم النزوح إلى العراق فلم يستجب الإمام لـه، وأخذ عبد الله يلتمس إليه ويطلب منه أن ينصرف عن نيّته، فقال الإمام: «إني رأيت رسول الله (ص) في منامي، وأمرني بأمرٍ لا بدّ أن أنتهي إليه».

فسأله ابن جعفر عن الرؤيا، فأبى أن يحدّثه بها، وقال لـه: «ما حدّثت بها أحدًا، وما أنا بمحدّث بها حتّى ألقى الله عزّ وجلّ»[١٠]. وانصرف ابن جعفر وهو غارق بالأسى والشجون وأيقن بنزول الرزء القاصم وقد أمر ابنَيه بمصاحبة خالهما الحسين (ع).

٣. عبد الله بن عبّاس

---

(٩) ابن عساكر، تاريخ ابن عساكر، الجزء ١٣، الصفحة ٦٩.

(١٠) محمّد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، الجزء ٦، الصفحة ٢١٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء ٨، الصفحة ١٦٣؛ محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء ٢، الصفحة ٣٤٣.

وأسرع عبد الله بن عبّاس، وهو حزين كئيب، إلى الإمام، فقال لـه: «إنّ الناس أرجفوا بأنّك سائر إلى العراق، فهل عزمت على شيء من ذلك؟». فقال الإمام (ع): «نعم، قد أجمعت على المسير في أحد يومَيَّ هذين إلى الكوفة أريد اللحاق بابن عمّي مسلم إن شاء الله تعالى».

وفزع ابن عبّاس فقال للإمام:

إنّي أعيذك بالله من ذلك، أخبرني أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم، فإن كان قد فعلوا سِرْ إليهم وإن كانوا إنّما دعوك وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعمّالهم تجبي بلادهم، وتأخذ خراجهم فإنّما دعوك إلى الحرب، ولا آمن عليك أن يغرّوك، ويكذّبوك، ويخذلوك، ويبيعوك، فيكونوا أشدّ الناس عليك.

ولم يخفَ شيء من هذه النقاط على الإمام (ع)، فقد كان على بصيرة من أمره فقال لابن عبّاس: «إنّي أستخير الله، وأنظر ماذا يكون».

وأحاطت بابن عبّاس موجة من القلق والاضطراب، فلم يمتلك نفسه، فراجع الإمام، وقال له:

إنّي أتصبّر ولا أصبر، إنّي أتخوّف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال. إنّ أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم، أقم في هذا البلد فإنّك سيّد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدوك - كما زعموا - فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوّهم، ثمّ أقدم عليهم، فإن أبيت إلّا أن تخرج فَسِرْ إلى اليمن فإنّ بها حصونًا، وشعابًا وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل وتبثّ دعاتك فإنّي أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحبّ في عافية.

فأخبره الإمام عن تصميمه على مغادرة الحجاز إلى العراق، وأنّه قد بتّ به، فقال لـه ابن عبّاس:

إن كنت سائرًا فلا تسر بنسائك وصبيتك، فإنّي لخائف أن تقتل كما قتل عثمان

ونساؤه وولده ينظرون إليه. لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك.

وفقد ابن عبّاس صبره، واندفع إلى الإمام بانفعال قائلًا، حسبما يروي المؤرّخون: «والله الذي لا إله إلّا هو لو أعلم أنّي إن أخذت بشعرك وناصيتك حتّى يجتمع علينا الناس أطعتني فأقمت لفعلت»، ولم يخفَ على الإمام كل ما قاله ابن عبّاس، ولم يكن يخفى على الإمام نصحه وصدقه، إلا أنّ الإمام كان قد عزم على الخروج للدفاع عن حمى الإسلام.

ثم بعد ذلك خرج ابن عبّاس وهو يتعثّر في خطاه، قد نخر الحزن قلبه فاتّجه نحو ابن الزبير فقال له: «لقد قرّت عينك يا ابن الزبير»، ثمّ أنشد:

يــا لـــك مـــن قنبرة بمعمر   خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري   صيّادك اليــوم قـتيل فابشري

ثمّ قال له: «هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخلّيك والحجاز»[١١].

إنّ الإمام لو كان يروم الملك والسلطان لاستجاب لرأي ابن عبّاس ولكنّه (ع) كان يبتغي أمرًا آخر غير ما يفهمه ابن عمّه، وكان يعلم أنّ ذلك لا يتحقّق إلّا من خلال تضحية مأساويّة فهي وحدها التي تحقّق ما يصبو إليه.

٤. أبو بكر المخزومي

وهرع أبو بكر بن عبد الرحمن المخزومي[١٢] إلى الإمام فقال له:

---

(١١) ابن الأثير، **تاريخ ابن الأثير**، الجزء ٣، الصفحتان ٢٧٥ و٢٧٦.

(١٢) أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي القرشي أحد الفقهاء السبعة، ولد في خلافة عمر، وكان يقال له راهب قريش لكثرة صلاته، وكان مكفوفًا، وهو من سادات قريش. توفي سنة ٩٥ للهجرة. جاء ذلك في كتاب **تهذيب التهذيب** لابن حجر العسقلاني، الجزء ٢، الصفحة ٣٠.

إنّ الرحم يظأرني[١٣] عليك ولا أدري كيف أنا في النصيحة. كان أبوك أشدّ بأسًا، والناس له أرجى، ومنه أسمع، وعليه أجمع فسار إلى معاوية، والناس مجتمعون عليه إلّا أهل الشام – وهو أعزّ منه – فخذلوه، وتثاقلوا عنه، حرصًا على الدنيا، وضنًّا بها، فجرّعوه الغيظ، وخالفوه حتّى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه. ثمّ صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا – وقد شهدت ذلك كلّه ورأيته – ثمّ أنت تسير إلى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق، ومن هو أعدى منك، وأقوى، والناس منه أخوف، وله أرجى، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطعموا الناس بالأموال – وهم عبيد الدنيا – فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحبّ إليه من ينصره، فاذكر الله في نفسك.

وشكر له الإمام نصيحته وحبّه، وأعلمه أنّه مصمّم على ما عزم عليه، ويئس أبو بكر فانطلق وهو يقول: «عند الله نحتسب أبا عبد الله». وأقبل أبو بكر على والي مكة وهو يقول:

كم ترى ناصحًا يقول فيعصى   وظنين المغيب يلقى نصيحا

فقال له: «ما ذاك يا أبا بكر؟»، فأخبره بما قال للحسين (ع): فقال له: «نصحت له وربّ الكعبة»[١٤].

٥. عبد الله بن جعدة

وأشفق عبد الله بن جعدة بن هبيرة على الإمام فألحق به ولده عون وبعث إليه رسالةً يسأله فيها الرجوع، ويذكر فيه تخوّفه في مسيره إلى العراق، فلم يستجب الإمام له، وقال له خيرًا[١٥].

٦. جابر بن عبد الله

---

(١٣) يظأرني: أي يدفعني عليك العطف والحنوّ.

(١٤) المسعودي، مروج الذهب، الجزء ٣، الصفحة ٦؛ تاريخ الطبري، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ٢١٦.

(١٥) ورد ذلك في كتاب أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى البلاذري.

وخفَّ جابر بن عبد الله الأنصاري إلى الإمام وطلب منه أن لا يخرج فأبى (ع)[١٦].

٧. عبد الله بن مطيع

والتقى الإمام بعبد الله بن مطيع، وكان في طريقه إلى العراق، وعرف عبد الله قصد الإمام (ع) فقال له:

> يا ابن رسول الله أذكرك الله في حرمة الإسلام أن تنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش وذمّة العرب، والله لئن طلبت ما في يد بني أميّة ليقتلوك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدًا أبدًا... والله إنّها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب. فالله الله لا تفعل، ولا تأتِ الكوفة، ولا تعرض نفسك لبني أميّة[١٧].

٨. محمّد بن الحنفيّة

وكان محمّد بن الحنفيّة في المدينة، فلمّا علم بعزم أخيه على الخروج إلى العراق توجّه إلى مكة[١٨]، وقد وصل إليها في الليلة التي أراد الحسين الخروج في صبيحتها إلى العراق، وقصده فور وصوله فبادره قائلًا: «يا أخي، إنّ أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك حال من مضى، فإن أردت أن تقيم في الحرم فإنّك أعزّ من بالحرم، وأمنعهم». فشكر له الإمام نصحه وقال له: «خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية، فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت». فقال محمّد: «فإن خفتَ ذلك فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البرّ فإنّك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك أحد». قال الحسين (ع): «أنظر فيما قلت»[١٩]. ولمّا كان

---

(١٦) أبو عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام، الجزء ١، الصفحة ٣٤٢.

(١٧) أحمد بن الفضل المكّي، وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل، الصفحة ١٨٩؛ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسن، الصفحتان ٢٩ و٣٠.

(١٨) تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٤٢.

(١٩) أحمد بن الحسن الحرّ العاملي، الدرّ المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والخلفاء والملوك، الجزء ١،

وقت السحر بلغه شخوصه إلى العراق وكان يتوضّأ فبكى حتّى سمع وقع دموعه في الطست[20]، وأسرع محمّد إلى أخيه، فأخذ بزمام ناقته، وقال له: «يا أخي ألم تعدني فيما سألتك؟»، فقال (ع): «بلى، ولكن أتاني رسول الله (ص) بعد ما فارقتك، وقال لي: يا حسين، اخرج فإنّ الله شاء أن يراك قتيلًا». وذعر محمّد، وسرت الرعدة بأوصاله، ودموعه تنحدر على خدّيه وهو يقول: «فما معنى حمل هؤلاء النساء والأطفال، وأنت خارج على مثل هذا الحال»، فأجابه الإمام بعزم وطمأنينة قائلًا: «قد شاء الله أن يراهنّ سبايا»[21].

٩. السيّدة أمّ سلمة (أمّ المؤمنين)

فزعت أمّ المؤمنين السيّدة أمّ سلمة حينما علمت أنّ الإمام (ع) قد عزم على الخروج إلى العراق، وكان في ذلك الوقت في المدينة قبل أن يتوجّه إلى مكة فهرعت إليه قائلةً بصوت حزين النبرات:

يا بنيّ لا تُحزني بخروجك إلى العراق فإنّي سمعت جدّك رسول الله (ص) يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها: كربلاء، وعندي تربتك في قارورة دفعها إليّ النبيّ (ص).

فأجابها الإمام بعزم ورباطة جأش قائلًا: «يا أمّاه، وأنا أعلم أنّي مقتول مذبوح ظلمًا وعدوانًا، وقد شاء عزّ وجلّ أن يرى حرمي ورهطي مشرّدين، وأطفالي مذبوحين مأسورين».

هذه ثلاثة عوامل ومصادر للمعارضة: «المكر»، و«الضعف»، و«العجز في الوعي». وقد ساهمت هذه العوامل الثلاثة في تكوين

الصفحة ١٠٩. وقريب من هذا الحديث ما جرى بين الإمام وأخيه حينما كان في المدينة.

(٢٠) ورد ذلك في كتاب أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى البلاذري، وفي الصواعق المحرقة أنّه بكى حتّى ملأ الطست من دموعه.

(٢١) الدرّ المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والخلفاء والملوك، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٠٩.

المعارضة الشديدة التي واجهها الإمام الحسين (ع) عند الخروج من الحجاز إلى العراق.

١ .د. صنفان من الناس مع الحسين (ع)

وإلى جانب تلك الأصناف الثلاثة التي شكّلت الجبهة المعارضة لحركة الحسين (ع)، صنفان من الناس معه:

١ . الصنف الأوّل: نخبة من المؤمنين وعوا قضيّة الحسين (ع) وانقادوا واستسلموا له، وخرجوا معه (ع) من غير نقاش ولا ترديد، ولا تشكيك ولا اعتذار، وهم النخبة الصالحة التي ثبتت مع الحسين (ع) حتّى النهاية، وقد غيّروا بهذا الوعي والعطاء والصمود النادر مجرى التاريخ.

٢ . الصنف الثاني: هم طائفة ممّن حسبوا أنّ الحسين (ع) غير جادٍّ فيما يقول من أمر الاستشهاد والموت، ويسعى إلى تحصيل الحكم والسلطان. فلمّا اتّضحت الأمور ووجدوا أنّ الحسين (ع) جادّ فيما يقول تركوه وتخلّوا عنه، ولم يبقَ معه غير العصبة المؤمنة التي لزمته إلى آخر رمق من حياتها سلام الله عليهم.

٢ . رأي المعارضة في خروج الحسين (ع)

ونقصد بالمعارضة الطائفة الثالثة التي وصفناها بالنصح والصدق.

أمّا الطائفة الأولى والثانية فلا رأي لهما لندرس رأيهما، فقد كان منطلق الفئة الأولى في معارضة خروج الحسين (ع) العداوة والحقد والمكر به. وكان منطلق الفئة الثانية الصمت والجبن والخوف من الدخول في مواجهة مسلّحة ضدّ دولة بني أميّة، فلا رأي لنناقشه أيضًا.

وأمّا الطائفة الثالثة، فقد كان لهم رأي في النصح للحسين (ع)

والصدق في النصيحة. وعليه سوف ندرسه ونناقشه وننظر في رأي الحسين (ع) في نصيحة هذه الفئة من الصحابة والتابعين رحمهم الله، الذين كانوا يصرّون على الحسين (ع) أن يتراجع عن مقصده إلى العراق.

هذه الطائفة تضمّ وجوه الصحابة والتابعين مثل ابن عبّاس وعبد الله بن جعفر ومحمّد بن الحنفيّة، وهؤلاء كانوا يرون أنّ الحسين (ع) لا محالة يقصد أحد أمرين لا ثالث لهما: (١) إمّا أنّه يريد الخروج والثورة على سلطان بني أميّة؛ (٢) أو يريد الهروب والتخلّص من البيعة.

أمّا عن التفسير الأوّل، فإنّ شيعة الحسين (ع) في العراق لا يقاومون سلطان بني أميّة وجيوشهم، وسرعان ما يفترقون عنه، ويتخاذلون عن القتال معه، كما تخاذلوا عن أبيه وأخيه من قبل. وهذه النتيجة المتوقّعة تدعمها شواهد وقرائن كثيرة.

وأمّا لو كان الحسين (ع) يغادر الحجاز إلى العراق ليحتمي بأهله في التخلّص من بيعة يزيد – التفسير الثاني – فإنّ العراق أرض مكشوفة لبني أميّة، ولا تصلح لإيوائهم وحمايتهم ولا يصلح أهلها للدفاع عنهم، ولكانت أرض اليمن أصلح لأنّها أرض جبليّة ونائية وبعيدة عن مركز سلطان بني أميّة، وللحسين (ع) فيها شيعة. وهو ما ذكره ابن عبّاس صراحةً: «فإن أبيت إلّا أن تخرج فسر إلى اليمن فإنّ بها حصونًا وشعابًا وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة»[٢٢]. ولم يكن يغيب عن الإمام الحسين (ع) ما كان يراه ويذكّره به الكثير من شيعته والناصحين والمحبّين له ممّن كان الإمام لا يتّهمهم في النصح والصدق وفهمهم لساحة العراق.

وإذا كان العراق لا يصلح لهذا ولا ذاك فإنّ الحسين (ع)، ولا محالة، لا يبغي أيًّا من الهدفين (إسقاط يزيد أو التهرّب من بيعته).

---

(٢٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء ٤، الصفحتان ٣٨ و٣٩.

وبالنتيجة، فإنّ الحسين (ع) يلقى مصرعه في العراق على يد بني أميّة على كلّ حال، وبمصرعه تسقط وتنتهك حرمة عظيمة من حرمات الإسلام ويُجَرّأ ذلك بني أميّة على انتهاك سائر حرمات الإسلام ولا يبقى أحد بعد الحسين (ع) لتحترمه بنو أميّة، وقد صرّح للحسين (ع) بذلك عبد الله بن مطيع العدوي الذي التقى الإمام في الطريق إلى العراق على ماء من مياه العرب، فقال للإمام: «بأبي أنتِ وأمّي يا ابن رسول الله ما أقدمك؟»، فقال له الحسين (ع): «كتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم». فقال له عبد الله بن مطيع: «أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أميّة ليقتلنّك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدًا أبدًا»[٢٣].

هذه خلاصة آراء الفئة الثالثة التي تميّزت بالنصح للحسين (ع).

٣. رأي الحسين (ع) في الخروج

أمّا الحسين (ع)، فكان يرى أمامه خيارًا ثالثًا غير ما سبق من الخيارَين، وهو ما لم يكن أولئك الناصحون ليعونه. ويتلخّص على ما نظنّ في النقاط التالية:

١. إنّ البقاء في الحرم المكّيّ، كما كان يقول له ابن الزبير وعمرو بن سعيد الأشدق، خطأ كبير، فإنّ بني أميّة يخطّطون لاغتياله (ع) حيث لا يريد هو أن يقاتلهم، خوفاً من أن تنتهك بمصرعه حرمة الحرم.

ولذلك قال لابن الزبير:

إنّ أبي حدّثني: أنّ بمكّة كبشًا به تستحلّ حرمتها فما أحبّ أن أكون ذلك الكبش

(٢٣) **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٢٩٠؛ وكذلك، محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٤٤، الصفحة ٣٧١.

ولئن أقتل خارجًا عنها بشبر أحبّ إليّ أن أقتل فيها. والله لو كنت في ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتّى يقضوا فيّ حاجتهم، والله ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت[٢٤].

٢. لا يمكن أن يغادر الإمام (ع) الحجاز إلى اليمن ليحتمي بجبالها الصعبة عن البيعة ليزيد، فلم يكن هذا همّ الحسين (ع) فقط، ولو كان الأمر كذلك لوسعه ذلك بأهون ممّا حصل له (ع)، وإنّما كان يريد أن يعلن للمسلمين يومئذٍ رفضه للبيعة.

ومن يتابع مغادرة الإمام (ع) المدينة إلى مكّة على الطريق الأعظم، ومقامه في مكّة، في دار العبّاس بن عبد المطلب، والإعلان عن الخروج إلى العراق، واستنصار الناس في مسيره، يعرف جيّدًا أنّ همّ الحسين (ع) في هذه الرحلة لم يكن الهروب من البيعة، ولو كان ذلك لتغاضى عنه بنو أميّة وتغافلوا عنه، وإنّما كان يريد أن يعلن رفضه للبيعة إعلانًا عامًّا، وإلى ذلك يشير في كلمته المعروفة «والله لا أعطيكم يدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد». ويقصد بالأوّل البيعة ليزيد (والله لا أعطيهم يدي)، وبالثاني أن يغيّب وجهه عن الساحة فلا يبايع، ولا يعلن الرفض والخروج. وعليه، فلا يبقى أمام الإمام إلا الخيار الثالث وهو الخروج والمقاومة وإعلان الرفض.

ولا يمكن أن يسكت عُمّال بني أميّة وجلاوزتهم عن ذلك أو يتغاضوا عنه. فهم يطلبون الحسين (ع) أينما ذهب حتّى يتمكنوا منه فيأخذوا منه البيعة أو يقتلوه. وكان الإمام يدرك ذلك جيّدًا، فيقول في جواب من يطلب منه أن يتحصّن ببعض شعاب اليمن من ملاحقة بني أميّة: «والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أذلّ من فرام المرأة».

---

(٢٤) عبد الرزّاق المقرّم، مقتل الحسين (ع)، الصفحة ١٦٦ .

٣. إذًا، لم يبقَ للحسين (ع) خيار إلا أن يقدم على التضحية بنفسه وأهل بيته وأصحابه في مواجهة مسلّحة لبني أميّة فيقتلونه لا محالة، فإذا قتلوه كان في مصرعه سقوط لبني أميّة، وكما قال (ع): «يكونوا أذلّ من فرام المرأة».

وأصلح أرض للخروج على بني أميّة العراق لأنّه مركز العالم الإسلاميّ وموضع شيعته. وقد كتب إليه شيعته بذلك. وبخروجه (ع) يكون لمصرعه وأهل بيته وصحبه الأثر القويّ في إعادة الناس إلى أنفسهم ورشدهم ودينهم.

وكان لا بدّ للناس من هزّة قويّة عنيفة لضمائرهم تعيد إليهم وعيهم وإرادتهم وقيمهم، وتشعرهم بعمق الكارثة التي حلّت بهم، وتبعث الندم في نفوسهم. فكان خروج الحسين (ع) ومصرعه، بالصورة المفجعة التي يحدّثنا بها التاريخ، هو مبعث هذه الهزّة العميقة في ضمائر المسلمين يومذاك، فقد نبّهت شهادته وأهل بيته وأصحابه ضمائر المسلمين، وأشعرتهم بالندم، ومكّنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم، من جديد، فيفكروا ويقرّروا مصيرهم بأنفسهم[٢٥].

هذا الخيار الثالث لم يدركه ابن عبّاس وعبد الله بن جعفر ومحمّد بن الحنفيّة وآخرون ممّن كانوا ينصحون الإمام (ع) بعدم الخروج.

ونودّ أن نسجّل هنا ملاحظةً هامّةً هي أنّنا نحتمل أنّ بني أميّة كانوا يعملون لمنع الحسين (ع) من الخروج إلى العراق، وكان لهم دور غير مباشر في توجيه وتحريك هذه المعارضة، ليتقبّل الحسين أحد الخيارَين السابقَين فلا يكون لموقفه عندئذ خطر على سلطان بني أميّة وخلافتهم في العالم الإسلاميّ، وقد كان الإمام واعيًا للمؤامرة الأمويّة،فلم يمكّنهم من نفسه كما يحبّون.

---

(٢٥) وارث الأنبياء، مصدر سابق، الصفحة ٢١٩.

الخطاب الحسينيّ
صفحة مشرقة من ثقافات عاشوراء

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[1].

تمثّل الزيارات المخصوصة في كربلاء لسيّد الشهداء (ع) والهيئات والمواكب الحسينيّة ومواكب المشاة إلى كربلاء تظاهراتٌ دينيّة وثقافيّة وسياسيّة واسعة من قبل جماهير المؤمنين، وتحمل معانٍ ومواقف سياسيّة وثقافيّة، في الصمود، والمقاومة، ورفض الذلّ والتّبعيّة، والعدوان، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، والولاء، والبراءة.

وإنّ ساحة كربلاء ساحة غنيّة بالثقافة والمفاهيم والأخلاق، والقوّة والإيمان والرفض والصمود. وهذه التظاهرة المليونيّة الواسعة في كربلاء عند مرقد الحسين سيّد الشهداء (ع) تمثّل كلّ هذه الثقافات والقيم والأخلاق والمفاهيم.

تلبية الهتاف الحسينيّ يوم عاشوراء

يوم وجّه الحسين (ع) استغاثته إلى المسلمين في كربلاء «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابٍّ يذبّ عن حرم رسول الله (ص)؟ هل من معين يرجو ما عند الله من إغاثتنا؟ هل من ناصر ينصرنا؟»، لم يكن يتوقع نصرًا من أولئك الجفاة الأجلاف الذين وقفوا مع طغاة بني أميّة لقتاله، وإنّما كان يوجّه خطابه في ذلك اليوم العسير إلى أجيال المسلمين المتعاقبة في مستقبل هذه الأمّة. إنّ الحسين (ع) كان يقصد بخطابه يوم عاشوراء هذه الأجيال المتعاقبة، من الأمّة المباركة، ويطلب منهم أن يقفوا معه وفي صفّه لجهاد الظالمين والغاصبين وللدفاع عن الإسلام والمسلمين.

وها هم جماهير زوّار الحسين (ع) يأتون كربلاء مشاةً وركبانًا، استجابةً لدعوة الحسين وخطابه يوم عاشوراء، ويلبّون دعوته ويقولون:

(١) سورة الحجّ، الآية ٣٢.

«لبّيك داعي الله، إن لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري». إنّ الهتافات المدوّية التي تملأ سماء كربلاء من جانب مواكب أنصار الحسين (ع) «لبّيك يا حسين» ترتفع استجابةً لنداء الحسين وهتافه يوم عاشوراء.

وإنّ هذه المسيرات المليونيّة الحاشدة التي تؤمّ كربلاء، رغم الإرهاب ورغم التحدّيات الكبيرة التي تواجهها، إعلان لتجديد البيعة وتأكيدٌ للعهد، وتعميق للولاء والبراءة مع الحسين (ع) وحفيده المهديّ من آل محمّد (ص).

الخطاب الحسينيّ وثقافة عاشوراء

سنحاول، في هذه المقالة، أن نستخلص دروسًا وحلولًا لمشاكلنا من الخطاب الحسينيّ يوم عاشوراء وما ينفعنا لبناء مواقفنا السياسيّة والحضاريّة، ويمكّننا من دخول ساحة الصراع المحتدمة بإيمان وعزم وقوّة ووعي، إنشاء الله. إذ إنّها غنيّة بالأفكار والمفاهيم والمواقف والرؤى والتصوّرات، وإنّ بإمكاننا أن نستقي من هذا اليوم الخالد في التاريخ كلّ ما قد ينفع هذه الأمّة في واقعها السياسيّ المعاصر من حلول ومواقف عمليّة.

إنّها مدرسة مفتوحة للجميع، وكلّ منّا يجد في ثورة الإمام الحسين (ع) ما يطلبه من العزّة والكرامة والقوّة، والموقف الكريم العزيز، وإباء الضيم، ورفض الذلّة والظلم.

وإليك طائفة من هذه الدروس:

١. و٢. الميراث والانتظار

يمتدّ الولاء من الماضي إلى المستقبل، ولا يخلو شيء من الزمان عن الولاء،

من بدايات التاريخ، من آدم ونوح (ع)، إلى نهايات التاريخ، حيث يظهر المهديّ من آل محمّد (ص) ليملأ الأرض قسطًا وعدلًا ويرث الأرض من أيدي الظالمين، تحقيقًا لوعده تعالى في التوراة والزبور والقرآن، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٢].

مواريث الأنبياء

يرث أهل البيت (ع) الأنبياء والصالحين في التاريخ، الصلاة، والذكر، والزكاة، والحجّ، والدعوة إلى الله، ومقاومة الظالمين، والقيم، والأخلاق، والصمود والصلابة في الحقّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وزيارة «وارث» للحسين (ع) تعبّر عن هذه الوراثة المعرفيّة والحضاريّة والثقافيّة والحركيّة والجهاديّة العريقة للحسين (ع) من الأنبياء (ع) : «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبيّ الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله»[٣].

هذه الوراثة ضاربة في أعماق التاريخ، منذ آدم ونوح (ع) إلى رسول الله (ص) وعليّ والحسن (ع)، والحسين (ع) في موقفه في كربلاء يوم عاشوراء، وتمتدّ وتستمرّ إلى ظهور الإمام الحجّة من آل محمّد (ص). لقد جسّد الحسين (ع) كلّ هذا الميراث المعرفيّ والثقافيّ والحضاريّ، والعباديّ والأخلاقيّ، والحركيّ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاديّ في مقاومة الظالمين. فللولاء، إذًا، تاريخ عميق ضارب في أعماق التاريخ، وأهل البيت (ع) يرثون هذه المسيرة الطويلة الصالحة للأنبياء (ع)، ونحن نرث منهم هذا التاريخ.

---

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

(٢) مطلع زيارة وارث.

فلا نكون مثلًا للذين أضاعوا الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ﴾[٤]. وإنّما نحفظها ونقيمها وندعوا إليها، كما حفظها سلفنا من قبل، ونكون إن شاء الله من الذين يأخذون بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ، وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٥]. فنحفظ في أنفسنا ومجتمعنا وأهلينا هذا الميراث الإلهيّ العظيم الذي ورثناه، كابرًا بعد كابر، وجيلًا بعد جيل، وهو ميراث الصلاة والتقوى والعبوديّة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذا عن امتداد الولاء في أعماق الماضي والتاريخ، وهو الميراث؛ وهو البُعد الأوّل من الولاء، والبعد الثاني هو البعد المستقبليّ وهو الانتظار.

الانتظار

للولاء امتداد مستقبليّ في أعماق المستقبل، حيث ننتظر ظهور الإمام المهديّ من آل محمّد (ص)، وننتظر بظهوره الفرج والنصر الكبير، والانقلاب الكونيّ الشامل الذي أخبرنا به الله تعالى في كتابه الكريم، وفي التوراة والزبور من قبل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٦].

وليس الانتظار مفهومًا سلبيًّا، كما يرصد الناس خسوف القمر وكسوف الشمس، بل له معنًى إيجابيّ، وهو التحضير والإعداد السياسيّ والثقافيّ والعمليّ على وجه الأرض، لإعدادها والمجتمع لظهور الإمام (عج) وقيامه بالانقلاب الكونيّ الكبير الذي سيقوده إن شاء الله.

---

(٤) سورة مريم، الآية ٥٩.
(٥) سورة طه، الآية ١٣٢.
(٦) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

ومعنى الانتظار، بناءً على هذا الفهم الإيجابيّ للكلمة، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وجهاد الظالمين، وإعلان كلمة الله، ونشر الثقافة الربّانيّة في الأرض، وإقامة الصلاة، وتربية أسرنا وعوائلنا وإصلاح زملائنا وأوساطنا الاجتماعيّة، وإصلاح ثقافتنا ورفض نفوذ الكافر في بلادنا، وما إلى ذلك من ألوان التحضير والإعداد للانقلاب الكونيّ الكبير القادم. وإلى هذا البعد للولاء تشير الزيارة الجامعة: «منتظر لأمركم، مرتقب لدولتكم»، «حتّى يحيي الله تعالى دينه بكم، ويردّكم في أيّامه، ويظهركم لعدله، ويمكّنكم في أرضه». والكلمة الأخيرة «ويمكّنكم في أرضه تشير إلى الآيات الأوائل من سورة **القصص**: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٧).

ويتبلور هذا الانتظار في العمل والحركة والجهاد، والصبر والمقاومة، والهدم والبناء، والسعي في الأرض لإقامة دين الله، والإعداد والتحضير لقيام الدولة الإلهيّة على وجه الأرض، بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومكافحة الباطل والمنكر وجهاد أئمّة الكفر.

نُدبة الفراق والانتظار

وإليك صورةً مشجيةً من الندبة التي يندب بها المؤمنون إمامهم (عج) في فراقه، وفي انتظار فرجه:

أين بقيّة الله التي لا تخلو من العترة الهادية؟ أين المعدّ لقطع دابر الظلمة؟ أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج؟ أين المرتجى لإزالة الجور والعدوان؟ أين المُدّخر لتجديد الفرائض والسنن؟ أين المُتّخذ لإعادة الملّة والشريعة؟ أين المؤمّل لإحياء الكتاب

(٧) سورة القصص، الآيتان ٥ و٦.

وحدوده؟ أين محيي معالم الدين وأهله؟ أين قاصم شوكة المعتدين؟ أين هادم أبنية الشرك والنفاق؟ أين مبيد أهل الفسوق والعصيان والطغيان؟ أين قاطع حبائل الكذب والافتراء؟ أين مبيد العتاة والمردة؟ أين مستأصل أهل العناد والتضليل والإلحاد؟ أين معزّ الأولياء ومذلّ الأعداء؟ أين جامع الكلمة على التقوى؟ أين باب الله الذي منه يؤتى؟ أين صاحب يوم الفتح وناشر راية الهدى؟ أين مؤلّف شمل الصلاح والرضا؟ أين الطالب بذحول الأنبياء وأولاد الأنبياء؟ أين الطالب بدم المقتول بكربلاء؟ أين المنصور على من اعتدى عليه وافترى؟ أين المضطرّ الذي يُجاب إذا دعا؟ أين ابن النبيّ المصطفى، وابن عليّ المرتضى، وابن خديجة الغراء، وابن فاطمة الكبرى؟[٨].

والانتظار مزيج من هذه الندبة المشجية والعمل الكادح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الظالمين، لإعداد الأرض لظهور الإمام المهديّ وقيامه.

وتتحوّل هذه الندبة المشجية في قلوب المؤمنين إلى عمل وحركة وسعي وثورة وقيام، وإزالة الاحتلال والظلم والفساد من بلاد المسلمين، وصبر صمود ومقاومة وثبات وجهاد ودعوة، وهدم وبناء، لتحضير الأرض لظهور الإمام (ع) وقيام دولته الكونيّة التي وعدنا الله بها في كتابه الكريم.

وليس من شكّ أنّ ظهور الإمام المهديّ (عج) وقيامه العالميّ الكبير يكون بعد الجيل الذي يوطّئ الأرض لظهوره وقيامه، كما وردت وتواترت بذلك النصوص الإسلاميّة. وهذا الجيل الموطّئ هو الذي يُعدّ الأرض لظهور الإمام وقيامه. ويأتي جيل أنصار الإمام (عج) الذين يقاتلون بين يدي المهديّ في الجيل الثاني بعد هذا الجيل.

فمعنى الانتظار، إذًا، هو التعجيل والتسريع في هذه التوطئة والإعداد

---

(٨) فقرات من دعاء الندبة المعروف.

بالأمر بالمعروف والجهاد والحركة والعمل. كما لو كان الإنسان ينتظر ضيفًا عزيزًا فإنّ معنى الانتظار هنا الإعداد والتحضير لاستقباله وتكريمه، كذلك لو كان الطالب ينتظر النجاح في الامتحان، فإنّ معنى الانتظار هنا التحضير والإعداد.

إنّ «الولاء»، كما قلنا، هو «ميراث» و«انتظار»؛ ميراث يشدّنا إلى مسيرة الأنبياء والصالحين في التاريخ، ورسول الله (ص) والأئمّة الهداة المهديّين من ذريّته، ويشدّنا إلى الانفتاح على الأمل المشرق الذي فتحه الله تعالى علينا للمستقبل، وقد أورثنا الله تعالى ذلك الميراث، ووعدنا بالفرج والنصر.

ولكنّ هذا الأمل يجب أن يقترن دائمًا بالكدح والجهاد والعمل، حتّى يتحقّق بإذن الله، وليس هو الترقّب وانتظار العلامات، كما يهوى بعض الشباب.

التحذير من استغلال الانتظار

وفي الوقت الذي نؤكّد فيه على ضرورة تعميق حالة الانتظار في نفوس الناس، وبشكل خاصّ في نفوس الشباب، نقول لهم: إنّ الانتظار الحقيقيّ لا يكون بالآمال، وإنّما يتحقّق بالأعمال والكدح والجهاد، لبناء جيل مقاوم وصلب، يوطّئ الأرض لظهور الإمام (عج). ونقول لهم: إنّ الانتظار يبعث في نفوس الشباب الأمل والقوّة والعزم، ومن يفقد الانتظار يفقد الأمل، ومن يفقد الأمل يفقد العزم والقرار، ومن يفقد العزم والقرار يتحوّل إلى خشبة عائمة في مسير الأحداث، ولا يكون له دور فاعل في الحياة وفي بناء المستقبل.

أقول: في نفس الوقت ينبغي أن نُحَصّن حالة الانتظار من أن يستغلّها انتهازيّون مضلّلون، فيستعطفون إيمان الناس وعقيدتهم، ويدّعون

السفارة للإمام المهديّ، أو المهدويّة مباشرةً، ويضلّلون الناس من ناحية، ويتركون أثرًا سلبيًّا في عقيدة الناس تجاه الانتظار من ناحية أخرى.

ولهؤلاء الأدعياء خطر كبير على عقائد الناس من ناحيتَين: تضليل فئات من المؤمنين من جانب، وتشكيك آخرين بالإمام المهديّ (عج) الذي أجمع المسلمون على انتظاره شيعةً وسُنّةً من جانب آخر.

إنّ ظهور الإمام المهديّ (عج) يقترن، كما تشير الروايات من الفريقين الشيعة والسُنّة، بآيات وعلامات كونيّة واضحة باهرة، لا يتوقّف فيها أحد إلّا الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، ويقترن بالنصر والتأييد الإلهيّ مرحلةً بعد مرحلة، ونصرًا بعد نصر.

إنّ ظهور الإمام آية من آيات الله الكونيّة الباهرة التي لا تخفى على أحد ولا تدع مجالاً للارتياب ، ومثله ومثل هؤلاء الأدعياء الذين يضلّلون الناس، مثل معجزة موسى (ع) عندما ألقى عصاه، وما واجهه به سحرة فرعون الذي أراد أن يضلّل الناس. فلم يبقَ يومئذ أحد من الناس لديه شكٌّ من أنّ ما جاء به موسى بن عمران (ع) هو الحَقّ والهدى، وما جاء به السحرة هو السحر والضلال والباطل. وكان في مقدّمة هؤلاء الذين آمنوا السحرة أنفسهم.

أقول: لا بدّ من تثقيف الناس، حتّى لا ينجرّوا إلى هذه الدعاوى المضلّلة. ولا بدّ أن يوضّح العلماء والخطباء للناس مفهوم «الانتظار» و«الظهور» و«الانقلاب الكونيّ» الذي يقوم به الإمام (عج) حتّى لا ينخدع الناس بهؤلاء الأدعياء المضلّلين.

٣. و ٤. النصر والثأر

الدرسان الثالث والرابع من دروس عاشوراء هما «النصر» و«الثأر».

إنّ قضيّة الولاء قضيّة صعبة تجري في السلم والحرب، وفي السرّاء والضرّاء، ولو كانت هذه القضيّة في السلم والسرّاء فقط لهان أمر الولاء. ومن متطلبات الولاء الصعب: النصر والثأر، ولا ولاء من دون النصر، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا * أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[9]، ولا ولاء من دون الثأر.

إنّ «الولاء» الحقّ لا ينفكّ عن هذين العنصرين «النصر» و«الثأر». والولاء الذي لا يكلّف صاحبه قتالًا ولا حربًا، ولا قطعًا لموصول، ولا وصلًا لمقطوع، ولا جهدًا ولا ضررًا، ليس من الولاء الحقّ، وإنّما هي صورة ولاء، وولاء ضحل ضعيف.

في زيارة عاشوراء نتمنّى ونسأل الله تعالى أن يرزقنا الثأر للدماء الزاكية التي أريقت ظلمًا وعدوانًا بكربلاء: «فأسأل الله الذي أكرم مقامك وأكرمني بك أن يرزقني طلب ثارك مع إمام منصور من أهل بيت محمّد (ص)»، وفيها أيضًا: «وأسأله أن يبلّغني المقام المحمود لكم عند الله، وأن يرزقني طلب ثاري مع إمام هدًى ظاهر ناطق بالحقّ منكم». وفي الزيارة الجامعة، نعلن عن استعدادنا الكامل للنصر «ونصرتي لكم معدّة».

أجل، إنّ النصر والثأر أمارتان على صدق الولاء. فما هو هذا النصر والثأر الواردان كثيرًا في تراث عاشوراء وثقافته؟ هل هي قضيّة تاريخيّة ينتهي دورها سنة ٦١ للهجرة، يوم استغاث الحسين (ع) بالمسلمين لينصروه في خروجه على حكومة بني أميّة، ويوم نهض المسلمون من شيعة الحسين (ع) في الكوفة ليثأروا لدمه ودماء أنصاره الزكيّة، في حركة المختار، وفي ثورة التوّابين رحمهم الله؟

لو كان ذلك معنى النصر والثأر لكان دورهما قد مضى ولم يَعُد لهما مصداق في حياتنا اليوم. ولكن ما معنى تكرار هذه المفاهيم (النصر

(٩) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

والثأر) في أدبيّات عاشوراء فما زلنا نقرأه ونتبنّاه إلى اليوم الحاضر؟ إنّ النصر والثأر قائمان في حياتنا وفي ساحة عملنا وحركتنا اليوم. ولم لا؟ أليس العدوان قائمًا اليوم؟ أليس الإسلام والإيمان والقيم والأخلاق مستهدفة لعدوان سافر من قبل أعداء الإسلام، وبشكل خاصّ من قبل أمريكا والاتّحاد الأوروبيّ وإسرائيل وحلفاؤهما حتّى هذا اليوم؟ أليس عدوان اليوم امتداد للعدوان على رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) وعلى الحسين (ع) وقيمه وأهدافه في كربلاء يوم عاشوراء؟ ألا نستمع إلى هتاف الحسين (ع) يدوّي في التاريخ: «أما من مغيث يغيثنا؟»، لماذا نحصر نداء الحسين (ع) وهتافه المدوّي في هذه الدائرة الزمنيّة الضيّقة سنة ٦١ هجريّة؟

إنّ عاشوراء ثقافة، وليس تاريخًا فقط. وعلينا أن نُدخل هذه المفاهيم في ساحتنا اليوم: ثقافة الولاء والبراءة، والحركة، والجهاد، والمواجهة، والمقاومة، والنصر، والثأر. ونقصد بالنصر: نصر الإسلام في غربته، ومن ينصر الإسلام فقد انتصر للحسين (ع) ولبّى نداءه ودعوته، ومن ينصر الحسين (ع) فقد نصر الإسلام.

ونقصد بالثأر: الثأر للشهداء، والأيتام، والأرامل، والسجناء، والمعذّبين، والمضطهدين في السجون، والمستضعفين والمنكوبين إلى اليوم.

كما ويتحقّق النصر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة في المجتمع، وتشييد أركان الإسلام في أوساطنا الاجتماعيّة، ودعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد والعدل، ورفض الشرك والظلم، وتشييد المعروف وإزالة المنكر، وإقامة الحقّ والعدل ونصرة المظلومين ومقاومتهم، ونشر ثقافة أهل البيت (ع)، ورفض الثقافات المضلّلة وإزالتها، وإقامة الحقّ ورفع صوته، والقضاء على الباطل وإخفات صوته.

ويتحقّق الثأر بالانتقام من الظالمين الذين سفكوا دماء الأبرياء وأيتموا أبنائنا وبناتنا ورمّلوا نسائنا، وأقاموا المقابر الجماعيّة في بلادنا وأفسدوا أخلاق الناس وأهلكوا الحرث والنسل. وهذا الثأر يكون من العتاة الجبّارين، من أزلام صدّام وحزب البعث الذي تلطّخت أيديهم بدماء الأبرياء، ومن أمريكا وإسرائيل، ومن التكفيريّين والإرهابيّين المتطرّفين السفهاء الذين مارسوا التخريب والتفجير والإرهاب، وإرعاب الناس في بلادنا. فإنّ الثأر من هؤلاء الظالمين ثأر للحسين (ع)، والثأر للحسين (ع) ثأر للإسلام.

أجل، إنّ قضيّة «النصر» و«الثأر» قضيّة حيّة قائمة في حياتنا وليست تاريخًا عابرًا. وعندما نقول: «يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزًا عظيمًا» يجب أن لا تكون هذه الأمنية وهميّةً ضحلةً، وإنّما تكون أمنيةً حقيقيّةً، وعلامة صدق هذه الأمنية قيام حركة «النصر» و«الثأر» في حياتنا وفي ساحتنا اليوم.

٥. التلبية

يقول الشيخ جعفر التستري (ره) في **الخصائص الحسينيّة**: «إنّ الحسين (ع) استنصر الناس سبع مرّات واستغاث سبعًا في ساحة الطفّ». ثمّ يقول: «إنّ التلبيات السبعة الواردة في زيارة الحسين (ع) «لبّيك داعي الله» إجابة وإشارة إلى هذه الاستنصارات والاستغاثات».

ولا يزال استنصار الحسين (ع) يدوّي في التاريخ، حيث وقف في كربلاء عام ٦١ للهجرة يهتف بالمسلمين: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله (ص)؟ هل من معين يرجو ما عند الله في إغاثتنا؟ هل من ناصر ينصرنا؟». كان الحسين (ع) يطلب يومئذٍ الإغاثة والنصرة من أجيال المسلمين الذين يتعاقبون في التاريخ، جيلًا بعد جيل.

والتلبيات الواردة في الزيارة إشارة إلى خطاب الاستنصار الحسينيّ يوم عاشوراء الذي خاطب به أجيال المسلمين، يومئذٍ، جيلًا بعد جيل.

ونقول نحن اليوم في جواب الاستنصار الحسينيّ بعد أربعة عشر قرنًا: «لبّيك داعي الله، إن لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري».

ولا يزال هذا الخطاب يدويّ في المسلمين، جيلًا بعد جيل، يستنصرهم ويدعوهم للدفاع عن الإسلام ومقاومة الظالمين، والاحتلال ونفوذ الاستكبار العالميّ الكافر في بلاد المسلمين، في فلسطين والعراق وأفغانستان، والى إغاثة الشعب البحرانيّ المظلوم من فتك آل خليفة وبطشهم. ويدعوهم إلى مقاومة الأنظمة العميلة للغرب في العالم الإسلاميّ، وإلى إزالة الظلم والجور عن المسلمين، ويدعوهم إلى إزالة القيمومة والوساطة التي تمارسها أمريكا على العالم الإسلاميّ بغطرسة وكبرياء واستعلاء.

إنّ الحسين (ع) «داعي الله»، يدعو إلى الله، ويُعلن دعوة الله، وتلبية الهتاف الحسينيّ يوم عاشوراء تلبية لدعوة الله.

دعوتان وتلبيتان في التاريخ

في التاريخ دعوتان ونداءان يلبّيهما أجيال المسلمين جيلًا بعد جيل، من بين الهتافات والنداءات الإلهيّة الكثيرة، ولن يتوقّف هذان النداءان، ولن تتوقف تلبية المسلمين لهما.

النداء الأوّل: آذان إبراهيم (ع) بالحجّ، بإذن الله، ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[10]. إذ لا تزال أجيال المسلمين

(١٠) سورة الحجّ، الآية ٢٧.

تلبّي نداء إبراهيم (ع) بالحجّ جيلًا بعد جيل، وفي كلّ عام.

والنداء الثاني: نداء الحسين (ع)، حفيد إبراهيم (ع) وسبط رسول الله محمّد (ص)، في عاشوراء لمقاومة الظالمين والمفسدين والجبابرة والطغاة.

وكلّ مسلم يحجّ إلى بيت الله الحرام، ويحرم ويطوف ويسعى، ويقف في عرفة، يلبّي دعوة إبراهيم التي رفعها في الأجيال بأمر من الله تعالى.

وكلّ من يقف في وجه الظالمين، ويهتف بموتهم وسقوطهم، ويعلن رفضه لهم، ويعلن الحرب عليهم، ويقاومهم، يُلبّي دعوة الحسين (ع) في عاشوراء سنة ٦١ للهجرة، ودعوة الأنبياء والأوصياء والصدّيقين من قبله ومن بعده.

إنّ الآذان بالحجّ، والاستنصار لمقاومة الظالمين، وتحرير عباد الله من سلطان أعداء الله لا يختصّ بزمان ولا بمكان. ولذلك كان كلّ يوم في تاريخنا عاشوراء، وكلّ مكان على وجه الأرض يجري عليه الصراع بين الحقّ والباطل كربلاء.

٦. و٧. الحضور والموقف

لقد علّمنا الحسين (ع) الحضور والموقف. وحينما طلبوا منه أن يبايع الطاغية ابن الطاغية يزيد بن معاوية، قال لهم: «والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل». وهذا هو «الموقف».

ثمّ نصحوه أن يغيّب وجهه عن الساحة، ويختفي في جبال اليمن، وقالوا له: إنّ بني أميّة يسكتون عنك إذا غبت عن الساحة، ولم تجاهر برفضك للبيعة وخروجك على يزيد، وإعلانك بعدم شرعيّة بيعته. فقال: «ولا أفرّ فرار العبيد». إنّ هذا الغياب والاختفاء عن الساحة بحكم الفرار من الزحف في الحرب، ولا يحبّذ الإمام الحسين (ع) لنفسه الفرار

كالعبيد، وهذا هو «الحضور».

الموقف والحضور يسجّلان أعلى درجات التحدّي في الساحة السياسيّة يومئذ. موقف كلّه صمود ومقاومة وثبات، وإباء من أن يخضع للطاغية، أو يمُدَّ يده إليه بالبيعة والطاعة. وحضور قويّ في الساحة، يملأ الساحة الإسلاميّة يومذاك بهذا الموقف الصلب، يعلن خروجه على الطاغية على ملاء من الناس من الحجاز إلى العراق، جهارًا وعلانيةً.

إنّ الموقف لا يتمّ في الخفاء، وفي النوايا والقلوب، والموقف الذي يتكّتم به صاحبه نيّةً ليس بموقف. إنّما يتمّ في وسط الساحة إعلانًا وجهارًا. وقد تعلّمنا نحن من مدرسة الحسين (ع) الموقف والحضور معًا، وهما ميراثان نرثهما من هذه المدرسة الربّانيّة، ويرثهما الحسين (ع) من أسلافه الصالحين من الأنبياء والأوصياء (ع).

وأفضل ما نستطيع أن نفعله اليوم لتلبية خطاب الحسين (ع) ودعوته هو الحضور الواعي والفاعل في الساحة السياسيّة واتّخاذ الموقف الصحيح. وهذا الحضور لجماهير المؤمنين في الساحة السياسيّة تكليف شرعيّ وعمل عباديّ، نتقرّب به إلى الله تعالى.

إنّ الله تعالى لا يحبّ أن يكون المؤمن خشبةً عائمةً لا ثقل له ولا وزن في مسير الأحداث، يتفرّج على ما يجري في الساحة من خلال الجرائد ونشرات الأخبار، وكأنّ الأمور التي تجري في الساحة تخصّ بلادًا غير بلاده. إنّ هذه الساحة ساحتنا وما يجري فيها يجري علينا، وعلى أبنائنا وبناتنا من قبل. فلا بدّ أن يكون لنا موقف حازم حاسم قويّ فيما يجري حولنا.

لقد علّمونا شعار «ما لنا وللسياسة: ما نتخل بالسياسة»، وهو أضرّ شعار تعلّمناه.

إنّ الله تعالى يحبّ أن يكون للمؤمن كلمة واضحة، وموقف قويّ

واضح، وصوت عالٍ جهوريّ إلى جانب الحقّ، ويكره الله للمؤمنين أن يقفوا موقف المتفرّجين على الأحداث، يصفّقون لمن يأتي وينادون بحياته، ويهتفون بموت من يذهب ويتبرّأون منه.

وقد دفعنا نحن ضريبة الغياب عن الساحة السياسيّة الكثير من دماء مراجعنا وفقهائنا وأعزّ أبنائنا ورجالنا ونسائنا الشرفاء المخلصين.

إنّ الساحة السياسيّة متى تخلو من أبنائها المخلصين الذين يحملون همّ الساحة واهتمامها تتحوّل إلى ساحة استعراض ومناورة، ومقايضة للمحترفين السياسيّين، والانتهازيّين الذين يتّخذون العمل السياسيّ حرفةً وسومًا ومقايضةً ومكسبًا، وأداةً لاجتذاب الأضواء الإعلاميّة والمكاسب السياسيّة، ويبيعون البلاد وأبناءها لقوى الاستكبار العالميّ بأبخس الأثمان، ثمّ تعود مأساتنا إلى أسوأ ممّا كانت عليه. وحضور الجمهور في الساحة يحصّن الساحة من أمثال هؤلاء المحترفين للسياسة والانتهازيّين.

إنّ حزب البعث برز واستولى على الساحة، وتسبّب في المجازر الواسعة، والتهديم والتخريب والإفساد الكبير في هذا البلد أربعة عقود من الزمن بسبب غياب الجمهور الواعي المؤمن الفاعل من الساحة. ولو كان حاضرًا فاعلا بالمستوى المطلوب بوعي ومسؤوليّة، لما تمكن حزب البعث، بأفكاره الإلحاديّة، ومناهجه التخريبيّة الواسعة، من النفوذ إلى بلادنا.

وعندما تمتلك الأمّة، بكلّ مستوياتها، من القمّة إلى القاعدة، الوعي السياسيّ والإدراك الاجتماعيّ السليم، وتفرّق بين الحقّ والباطل والهدى والضلال والصالح والفاسد، وتضع أقدامها عند مواضع القيادة الإسلاميّة والمرجعيّة الراشدة في صفّ واحد، وتتواصى بالحقّ وتتواصى بالصبر؛ فإنّ هذه الأمّة في خير، ولن يستطيع طغاة الأرض جميعًا إذلالها

وإرغامها على الرضوخ.

رفض العمالة لأنظمة الاستكبار العالميّ

من نتائج «الموقف» و«الحضور» رفض عملاء أنظمة الاستكبار العالميّ في الغرب، الذين يعملون لبسط نفوذ هذه الأنظمة في العالم الإسلامي وتطويع أقاليم بلاد المسلمين لمصالحها وأطماعها ونفوذها، كما هو حاصل اليوم في كثير من أقاليم العالم الإسلاميّ التي يحكمها حكّامٌ عملاء لأنظمة الاستكبار العالميّ في الغرب.

إنّ الله تعالى أراد للمسلمين أن يكونوا أعزّاء أقوياء في العالم، يهابهم الغرب والشرق، وأن يكون لهم الاستعلاء على الكافرين. يقول تعالى: ﴿ولله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[11]، ويقول: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[12].

وقد حرّم الله على المؤمنين الركون إلى الظالمين، ومطاوعتهم، والانقياد لهم، والدخول في دائرة نفوذهم السياسيّ والثقافيّ والاقتصاديّ، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[13]. وإنّ قبول نفوذ الكافر وسلطانه على اقتصاد العالم الإسلاميّ وثقافته وسياساته الخارجيّة والداخليّة شرّ أنواع الركون. وقد نفى الله تعالى أن يكون للكفّار على المؤمنين سبيل، والسبيل هو النفوذ ذو السلطان، يقول تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا﴾[14]، والنفي هنا بمعنى النهي والحظر بالتأكيد.

والمعنى أنّ الله تعالى قد حظّر عليكم أيّها المسلمون أن تقبلوا نفوذ

---

(١١) سورة المنافقون، الآية ٨.
(١٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٩.
(١٣) سورة هود، الآية ١١٣.
(١٤) سورة النساء، الآية ١٤١.

الكفّار في بلادكم وثقافتكم وشبابكم وجمهوركم ومواقع القرار من حكوماتكم. وإنّ هذا، للأسف، حاصل اليوم، وإنّ أمريكا تمارس دعم إسرائيل علانيةً في مقابل كلّ الدول العربيّة والإسلاميّة، وأيدي حكامنا - في الأغلب - في يد أمريكا، وبلادنا وثرواتنا وأسواقنا ومواقع القرار في مجتمعاتنا مفتوحة للنفوذ الغربيّ عامّةً والنفوذ الأمريكيّ خاصّةً، مع كلّ الأسف والأسى.

٨. الوعي الدينيّ والسياسيّ

ولا بدّ أن يكون هذا الحضور حضورًا واعيًا مسؤولًا على صعيد الجمهور. كما أنّ وعي النخبة المثقّفة شطر من المهمّة، ولن يحقّق الوعي الدينيّ والسياسيّ في الأمّة دوره إلّا إذا عمّ الوعي القاعدة العريضة منها، ونزل من أبراج النخبة إلى قاعدة الهرم الاجتماعيّ.

فإنّه من شأنه أن يحصّن ساحتنا وجمهورنا وشارعنا الإسلاميّ في مواجهة التضليل الإعلاميّ الهائل الذي يمارسه أعداء الإسلام من خلال وسائل الإعلام والفضائيّات الكثيرة، التي كثرت هذه الأيّام، وكذلك في مواجهة الأعمال الإرهابيّة التي تمارسها زمر الإرهاب من حزب البعث، والفئات المتطرّفة من القاعدة وغيرها، والاستخبارات العالميّة التي تجد منافعها ومكاسبها الاقتصاديّة والسياسيّة ومبرّرات بقائها في استمرار حالة الفوضى الأمنيّة في العراق.

وتتمثّل مهمّة العلماء والمبلّغين والوعّاظ والمثقّفين الإسلاميّين والأحزاب والمنظّمات والحركات الإسلاميّة في نشر الوعي السياسيّ الإسلاميّ، لتحصين الجمهور بذلك من التضليل الإعلاميّ.

إنّ الإعلام، اليوم، علم قائم بالذات فيه أكثر من اختصاص، ومهمّته تضليل الرأي العامّ عن طريق طرح الشعارات المضلّلة، وتحريف الخبر

وانتحاله، والتلاعب في عرض الخبر. والوعي السياسيّ للأمّة وحده كفيل بمقاومة هذه العوامل جميعًا، وتحصين الشارع من كلّ عوامل التضليل الإعلاميّ.

إنّ الوعي الدينيّ والسياسيّ والاجتماعيّ يدرأ عن الأمّة وعن الفرد الكثير من الفتن والمصائب التي تحلّ بالناس، وتؤدّي بالأمّة إلى الاختلاف والانشقاق والتقاطع، وتستنفذ طاقات الأمّة وقدراتها. وأنظمة الاستكبار العالميّ تعرف اليوم جيّدًا كيف تنفذ إلى المجتمعات والشعوب المستضعفة، وتبسط فيها نفوذها السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ، عن طريق مضلّات الفتن.

إنّهم لا يعدمون هنا وهناك من توسوس إليه نفسه أن يرشّح نفسه للإمامة الموعودة للمسلمين أو النيابة والسفارة الخاصّة للإمام المهديّ (عج)، أو اليمانيّ الذي يترقبه المسلمون في جملة علامات الظهور، فيجمع حوله نفرًا من السذّج البسطاء، بل يتعرّف عليهم شياطين الاستكبار العالميّ، في بلادنا، ويبحثون عن هذه الحالات فيسندونهم ويدعمونهم ويموّلونهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون، فيصنعون منهم مشكلةً تخلّ بالأمن والاستقرار، وتبلبل آراء الناس بين السلب والإيجاب.

ومن خلال هذه المشاكل والفتن والبلابل ينفذ الاستكبار العالميّ، كما صنعوا في الهند، في استحداث «القاديانيّة»، وكما صنعوا في إيران في استحداث البابيّة والبهائيّة وأمثالهما، فينشغل الناس بهم وبأفكارهم وأحاديثهم ومقابلتهم عن الاستعمار ومكره وكيده وأساليبه الملتوية، وعن النفط الذي يسرقونه، وعن إسرائيل وعدوانها، والدور الأمريكيّ القذر والمفضوح في تمكينها من استحداث ترسانة نوويّة كبيرة في قلب العالم الإسلاميّ، وعن الفساد والابتذال والسقوط الذي تنشره الأفلام والفضائيّات في صفوف شبابنا.

إنّ أنظمة الاستكبار العالميّ قد تمرّست في هذه الوسائل، وتمتلك مهندسين ومخطّطين ومعماريّين، يخطّطون لهذه الفتن. وسوف تكثر في عصر الوعي والنهضة والحركة الإسلاميّة أمثال هذه الفتن في صفوف المسلمين، وإذا لم يتهيّأ العلماء والخطباء والمثقّفون الإسلاميّون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر من الآن للتصدّي لأمواج هذه الفتن، فإنّها سوف تستغرقنا، وتعطل مشروعنا الإسلاميّ الكبير في عودة الإسلام إلى الحياة، وتحرير بلاد المسلمين من نفوذ الصهيونيّة والصليبيّة العالميّة وعملائها في العالم الإسلاميّ.

والأداة المفضّلة لمكافحة هذه الفتن في أوساط الجمهور كلمتان: «الوعي» و«التقوى»، وهما كفيلتان لإزالة هذه الفتن والقضاء عليها.

إنّ الوعي الدينيّ والسياسيّ والاجتماعيّ يفضح هذه الفتن، ويعرّيها للناس فلا ينخدعون بها. ونشر هذا الوعي من رسالة العلماء، وخطباء المنبر الحسينيّ، والجمعات والمثقّفين، والكتّاب الإسلاميّين. والتقصير في نشر هذا الوعي في الظروف الحاضرة تقصير في واجب من أهمّ الواجبات الدينيّة والسياسيّة في عصرنا. ولا بدّ أن يكون مثل هذا الوعي في متناول الناس، كلّ الناس، وليس مخصوصًا بدائرة النخبة، كالوعي الصحّيّ الذي لا بدّ أن يكتسبه الناس جميعًا، حتّى يحفظوا أنفسهم من الأمراض المعدية والأوبئة.

وأمواج الفتن كالأوبئة التي تعمّ الناس إذا كانوا يفقدون الوعي الصحّيّ الضروريّ لمكافحتها. والخطّ السليم الذي يجب على الناس في وسط هذه الفتن أن يتمسّكوا به لسلامة دينهم ودنياهم هو خطّ الفقهاء، الذي أكّد عليه رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) في تعاليمهم في ظروف الفتنة الدينيّة والسياسيّة.

والعامل الآخر لمواجهة هذه الفتن: هو «التقوى»، فإنّ التقوى تمنح

الناس البصيرة كالوعي تمامًا، وإذا قصر الوعي في تبصير الناس أحيانًا، فلا تقصر التقوى.

وقد لا يُسعف عامل الوعي عامّة الناس أحيانًا لإنقاذهم من ورط الفتن والمهالك، ولكن تنقذهم التقوى. فإنّها المعيار الذي يُفرّق لهم الحقّ من الباطل، ويبيّن الصحيح من السقيم، والصراط السويّ من السبل المعوجّة المنحرفة، والصدق من الكذب، ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[١٥]. وهذه الأداة أداة عامّة للنخبة وللجمهور على حدّ سواء.

٩. اتّباع المرجعيّة

ومن شروط الحضور في الساحة أن يكون موجّهًا من قبل المرجعيّة الدينيّة الراشدة المتصدّية التي يرجع إليها أكثر المؤمنين. فهي تمثّل في تراثنا الثقافيّ، الموروث من أهل البيت (ع)، موقع القيادة والولاية السياسيّة في العالم الإسلاميّ، وامتدادًا لمواقع أهل البيت (ع) وإمامتهم، وتقع موقع النيابة العامّة عن الإمام الحجّة المنتظر (عج)، فطاعة المرجعيّة واتّباعها من طاعة الإمام. وقد ورد في أحاديث أهل البيت (ع) تأكيد كبير على اتّباع الفقهاء والاجتماعيّة، إذ علينا نحن أن نحفظ هذا التراث العظيم، ونستثمره في مسيرتنا الاجتماعيّة، ونحميه ونحتمي به.

التعدّديّة السياسيّة

إنّ اتّباع المرجعيّة والاهتداء بهديها يحفظ لنا وحدة مواقعنا السياسيّة من التشرذم والتشتّت. ونحن لا نرفض حالة التعدديّة السياسيّة، فهي جزء من الواقع العراقيّ، وقد ألفناها، وعادت جزءًا من حياتنا السياسيّة شئنا

(١٥) سورة الأنفال، الآية ٢٩.

أو أبينا، وصحّ أم لم يصحّ، ولكنّ «التعدّديّة» المقبولة تنحصر في دائرة الرأي، وليس القرار والموقف.

ولكلّ مجموعة شخص أن يتبنّى رأيًا وفهمًا سياسيًّا معيّنًا، وأن يمارس في الساحة العمل السياسيّ في دائرة اختصاصه وإمكاناته، ولكن ليس من حقّ أيّ فئة أن تنفرد عن الأمّة بالقرار أو الموقف السياسيّ. فإنّ تعدّديّة الرأي تؤدّي إلى التراشد، والتكامل في الرأي والعمل. وأمّا التعدّديّة في الموقف والقرار، فتؤدّي إلى تشتّت الموقف وتمزّق القرار، وهو أضرّ شيء في حركة الأمّة السياسيّة.

المرجعيّة لتوحيد القرار والموقف

تنوب المرجعيّة، في عقيدتنا، في عصر غيبة الإمام المهديّ (عج)، في توحيد القرار والموقف، وتوجيههما في قضايا الأمّة الكبرى، وفي بيان أحكام الله، وفي المحافظة على الشريعة ووحدة الأمّة.

وهذه الحرمة والقيمة العالية التي تمتلكها المرجعيّة اليوم في نفوس أتباع أهل البيت (ع) في العالم لا تمتلكها جهة أخرى، وهي ليست من إنجازات عصرنا ولا العصر المتقدّم، وإنّما هي من تراثنا التاريخيّ من عصر أهل البيت (ع)، ورثناه وتبنّيناه وعمّقناه، ولكن لم نؤسّسه، وإنّما أسّسه أهل البيت (ع)، ويدخل في تكوينه ثلاث عوامل أساسيّة:

١. تأييد الله تعالى وتسديده لهذه المؤسّسة الدينيّة.
٢. تعليمات أهل البيت (ع) في طاعة الفقهاء واتّباعهم.
٣. نظافة وسلامة تاريخ هذه المؤسّسة خلال العصور الطويلة في الحركة وسط الناس.

وعلينا نحن أن نحافظ على هذا الميراث الاجتماعيّ والسياسيّ

والحضاريّ والثقافيّ الذي ورثناه من أهل البيت (ع)، وأن لا نفرّط فيه وأن نأيّده وندعمه، ونقف إلى جانبه في خضمّ الأحداث المتضاربة، ونقدّم النصح له والنقد البنّاء ونمكّنه من أداء رسالته التاريخيّة.

وتتحمّل الحركات الإسلاميّة مسؤوليّةً كبيرةً في إسناد المرجعيّة وتقديم النصح لها والوقوف إلى جانبها، فهي الأذرع التنظيميّة الأمنيّة المتغلغلة داخل الأمّة، فهي تدعو الناس إلى الاحتفاف بالمرجعيّة الدينيّة والوقوف إلى جانبها، والتضامن معها في الموقف والقرار السياسيَّين.

كما إنّ علينا الوعي والدقّة والحذر في تشخيص المرجعيّة، لئلّا تختلط علينا المصاديق، وتلتبس عندنا الأمور، فنفقد التشخيص الواعي الصحيح للمرجعيّة الراشدة الصالحة، فإنّ أخطار هذا الالتباس وأضراره على الأمّة كثيرة.

ومن المقاييس الصحيحة للتشخيص الاسترشاد بآراء الفقهاء المعروفين في أوساط الناس بالتقوى والعلم، والاستقامة والسداد في السلوك السياسيّ والاجتماعيّ والدينيّ لمرجع التقليد، واشتهاره بين أهل العلم بالفقاهة والتقوى. وأيضاً شيوع الاتّباع والتقليد له في أوساط جمهور المؤمنين الواعين، كذلك الحضور في الساحة والتصدي لشؤون المسلمين، لكي يحصّن الله تعالى هذا الجمهور من الالتباس إن شاء الله.

١٠. الشعائر الحسينيّة

تمثّل الشعائر الحسينيّة (الهيئات والمجالس والزيارات الحسينيّة) تظاهرات اجتماعيّة كبيرة وواسعة، تستقطب عشرات الملايين من الناس في أقطار الأرض في ثلاث مشاهد:

١. المجالس الحسينيّة.

٢. المواكب والهيئات الحسينيّة (المسيرات).

٣. الزيارات العامّة والمخصوصة.

وتمتلك هذه الشعائر الثلاثة كفاءةً عاليةً غير اعتياديّة في اجتذاب الناس واستقطابهم. فلم نكن نعرف في الإسلام شعارًا يمتلك هذه الدرجة من القوّة في اجتذاب الملايين غير الصلاة والحجّ. فهذه ظاهرة دينيّة اجتماعيّة فريدة، يتدفّق في إطارها حشود المؤمنين في ذكرى عاشوراء والأربعين، للمشاركة في المجالس الحسينيّة والمواكب والمسيرات الحسينيّة في أرجاء المعمورة، في القارّات الخمسة.

ويقصد الناس في مواسم الزيارات المخصوصة زيارة الحسين (ع) في كربلاء مشيًا على الأقدام في قوافل بشريّة كبيرة، وفي أرتال من السيّارات كأنّها أنهار متدفّقة بالبشر تصبّ عند الحائر الحسينيّ بالملايين. فهذا شيء لا يمكن أن يصنعه سلطان ولا مال ولا إعلام، كما لا يمكن أن يمنعه سلطان أو مال أو إعلام، وإنّما هو أمر من أمرك ومشيئتك، خصّصت به الحسين (ع) وشيعة الحسين (ع).

الحضور المليونيّ الموجّه في الشعائر الحسينيّة

إنّ الظاهرة الحسينيّة تتألّف من قضيّتَين:

الحضور الجمهوريّ الحاشد لإقامة الشعائر الحسينيّة، وهو العنصر الأوّل، والتوجيه الثقافيّ والحضاريّ والسياسيّ لهذا الحضور، وهو العنصر الثاني لهذه الظاهرة.

وهذا التوجيه يحصل أوّلًا من خلال المنبر الحسينيّ الذي يؤدّي دورًا توجيهيًّا واسعًا في أوساط الجمهور الحسينيّ، وثانيًا من خلال نصوص الزيارات الواردة عن أهل البيت (ع) التي يتلوها الزائرون، وهي

نصوص غنيّة بثقافة التوحيد والثقافة المناهضة للظلم والعدوان، وثقافة الولاء والبراءة، والانتماء إلى الصادقين، أئمّة الحقّ، ومقاطعة الظالمين ومقارعتهم، وثقافة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وثالثًا من خلال الشعارات التي يردّدها هذا الجمهور في المسيرات والمواكب الحاشدة أيام المناسبة.

أمّا الدور التثقيفيّ للمنبر الحسينيّ فلا يقتصر على أيّام المناسبة، فهو عامر بالتوجيه على امتداد أيّام السنة. ويحقّق أمرين هامَّين: وهما التعبئة والتحشيد المليونيّ للجمهور في الساحة من دون الحاجة إلى أيّ جهد إعلاميّ يذكر، ثمّ التوجيه السياسيّ والثقافيّ الذي ينظّم ويوجّه حركة هذه التظاهرة البشريّة الحاشدة وفكرها ومطالباتها وثقافتها. وهو أعظم ما يخيف الطغاة وأزلامهم في هذه الظاهرة. لأنّ حضور الجمهور إذا كان غوغائيًّا فلا قيمة له. أمّا إذا كان موجّهًا لصالح أئمّة الحقّ والدفاع عنهم، والنيل من أئمة الظلم والتشهير بهم وفضحهم، وكان خطاب هذا الحضور الدعوة إلى العدل والقسط، ومقارعة الظلم، والدعوة إلى القيم، ومكافحة أضداد القيم، والدعوة إلى الصمود في وجه الظالمين، والشهادة في سبيل الله، وتقبيح الظلم والرضوخ له، ورفض الاحتلال، ورفض النفوذ الاستكباريّ في بلاد المسلمين بكلّ أشكاله. أقول: إذا كان كذلك وبهذا المستوى من التوجيه، والتوعية، والتثقيف، فإنّ من الطبيعيّ أن يعتبره الطغاة خطرًا حقيقيًّا يهدّد كيانهم وينذرهم بالسقوط.

والطغاة حسّاسون تجاه هذه الثقافة وهذا الوعي. ولذلك يقاومون هذه الظاهرة، منذ حادث الطفّ إلى اليوم. ولقد سعى الطاغية ابن زياد إلى إخفاء قبر الحسين (ع) ولكن لم يتمكن من ذلك، كذا فعل خلفاء بني أميّة ثمّ بني العبّاس إلى منع الناس من زيارة قبر الحسين (ع) ففشلوا، واضطر الطاغية المتوكّل العبّاسي وقبله هارون العبّاسي إلى حرث القبر الشريف وسقيه للزراعة، فحار الماء حول الحائر الحسينيّ. وهكذا كادوا

بالحقّ، وكاد الله بهم، ومكروا للقضاء على نداء التوحيد والعدل الذي رفعه الحسين (ع)، فمكر الله بهم. ولقد كانوا يقطعون الأكفّ من الأيدي في زيارة الحسين (ع)، فيقدّم الناس أكفّهم، لئلّا يندثر ذكر الحسين (ع)، وليورثوا أبناءهم ما ورثوا من آبائهم من إقامة الشعائر الحسينيّة. ولقد شاهدنا قريبًا كيف كان طاغية العراق صدّام وأزلامه يخافون، بل ويتوجّسون، من حركة المشاة إلى كربلاء، ومن إقبال الشباب على زيارة الحسين (ع)، ويمنعونهم من السير مشيًا إلى زيارة الحسين (ع)، ويضعون الرقباء ورجال الأمن على الطرق الموصلة إلى كربلاء. وكان الجمهور يتحدّى الطاغية بزيارة الحسين (ع) وإقامة عزائه والمشاركة في مسيرات العزاء والشعائر الحسينيّة (المجالس، الزيارات، المسيرات).

الخطاب المزدوج للمنبر الحسينيّ

إنّ لعاشوراء خطابًا مزدوجًا للناس، وهما مأساة الحسين (ع) أوّلًا، وهي جزء لا يتجزّأ من هذه الشعائر، لابدّ من المحافظة عليها، وهي التي تقوّم الجزء الآخر من الخطاب. وثانيًا الجانب الثقافيّ من نهضة الحسين (ع)، ورسالته إلى المسلمين للقضاء على الطغاة، وتحرير العالم الإسلاميّ من طغيانهم وظلمهم وإفسادهم، ودعوة المسلمين إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج على الظالم ومجاهدته.

وقد خطب الحسين (ع) في منزل البيضة فقال:

> أيّها الناس: إنّ رسول الله (ص) قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحرام الله، تاركًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله (ص) يعمل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلال الله، وأنا أحقّ من غيّر.

هذه هي رسالة الحسين (ع) إلى المسلمين في عصره، وفي العصور التي تلي، وفي عصرنا، ولا يزال نداء الاستنصار الحسينيّ قائمًا في المسلمين، يدعوهم إلى نصرة دين الله، والدفاع عن شريعته، ومجاهدة الظالمين، ونصرة المظلومين والمستضعفين.

وهذا هو الجزء الذي يجب أن يحمله المنبر الحسينيّ، وتتضمّنه الشعائر الحسينيّة في عصرنا، إلى جانب البعد المأساويّ لحادث الطفّ.

رسالة الشعائر الحسينيّة

إنّ رسالة الشعائر الحسينيّة في حياة المسلمين هي تثقيف المسلمين بثقافة التوحيد، والثورة، والخروج على الظالمين ومقاطعتهم، وثقافة الرفض والمقاومة، والمقاطعة والصمود والولاء والبراءة من الظالمين.

هذه صورة عن واقع الشعائر الحسينيّة ودورها في حياتنا وثقافتنا السياسيّة والجهاديّة. وأمّا مسؤوليّتنا تجاه الشعائر الحسينيّة فهي:

١. المحافظة على هذا الميراث الثقافيّ والحضاريّ العظيم وتنشيطه، وتفعيله، وإسناده، والمساهمة فيه، والبذل والإنفاق لإقامته.

٢. المحافظة على سلامة الأداء في حدود التعليمات الواردة من أهل البيت (ع) في إقامة هذه الشعائر، وتهذيبها عمّا لا يرضى به أهل البيت (ع) ولا نعرف له سندًا أو أصلًا فقهيًّا صحيحًا في أحاديث أهل البيت (ع)، وعمّا يؤدّي إلى وهن المذهب والطائفة لدى الرأي العام.

٣. إثراء الشعائر الحسينيّة بالثقافة الإسلاميّة الأصيلة في التوحيد والإيمان، والجهاد والهجرة، ومقاومة المظلومين، والولاء والبراءة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة، وعدم الركون إلى الظالمين، ونصرة الحقّ ونبذ الباطل.

وتقع مثل هذه المسؤوليّة على عهدة المنبر الحسينيّ.

١١ . تفعيل الدور الزينبيّ للمرأة المسلمة في ساحتنا المعاصرة

ولثورة الإمام الحسين (ع) مراحل ثلاث: مرحلة القتال والمأساة، ومرحلة الخطاب، والمرحلة الثالثة الثأر. وقد أنجز الإمام الحسين (ع) وأنصاره المرحلة الأولى يوم عاشوراء في ثورة مأساويّة دامية يقلّ نظيرها في التاريخ الإسلاميّ.

وقد نهضت المرأة في واقعة الطفّ لتحمّل المرحلة الثانية من مراحل الثورة؛ مرحلة القيام بإعلان الخطاب الحسينيّ إلى المسلمين. فقد كان همّ طاغية الشام والكوفة القضاء التامّ على ذلك الخطاب، بعد أن تسنّى لهم القضاء على الشهداء وسيّد الشهداء في كربلاء يوم عاشوراء، ولكنّ جهودهم باءت بالفشل الذريع. حيث تقدّمت النساء اللائي واكبن الركب الحسينيّ بعد يوم عاشوراء للقيام بإبلاغ الخطاب الحسينيّ إلى جماهير المسلمين، وفي مقدّمتهنّ زينب بنت علي(ع)، بطلة كربلاء، وأخوات الحسين وبناته، وأدّت هذه البطلة الدور أفضل أداء في الكوفة، وفي الشام في قصر الطاغية، وأفشلت بخطابها الذي هزّ الكوفة والشام يومئذٍ كلّ مخططات بني أميّة.

لقد شاركت المرأة مشاركةً فعّالةً في هذه الملحمة المأساويّة الكبيرة. ولولا الدور الذي نهضت به بطلة كربلاء وبنات عليّ والحسين وزوجاته وسائر النساء المرافقات لركب الحسين (ع) لما كان لعاشوراء هذا الدور العظيم في تاريخ الإسلام.

إنّ المرأة المسلمة اليوم تُحبّ أن تعرف موقعها من عاشوراء، وعلى المنبر الحسينيّ إبرازٌ لهذا الدور العظيم للمرأة في مشاهد الطفّ بشكل بارز. ولست أغالي لو قلت إنّ الشطر الثاني من نهضة الحسين (ع) حَفَظ الشطر الأوّل من النهضة. إنّ نساءً من أمثال بطلة كربلاء زينب (ع)، ورباب، وسكينة، وأمّ كلثوم، وأمّ البنين، وفاطمة بنت الحسين (رضوان الله عليهن)، وطوعة، ودلهم، وأمّ وهب بنت عبد، التي حظيت بالشهادة في كربلاء، وجارية مسلم بن عوسجة، وأمّ عمرو بن جنادة، وأمّ عبد الله الرضيع، ونساء بني أسد، ونساء من المعسكر الآخر رفضن أزواجهن وقاطعنهم، وتبرّأن منهم مثل زوجة خولي التي جاء زوجها إلى بيتها برأس الحسين (ع) فشتمته وقاطعته وتبرّأت منه، وزوجة كعب بن جابر التي صرخت في وجه زوجها «أعنتَ على قتل ابن فاطمة، وقتلت سيّد القراء. لقد أتيت أمرًا عظيمًا»، والغيورة الشجاعة من عشيرة بكر بن وائل التي رفعت عمود الخيمة لتدافع عن حرم الحسين بعد مصرع الحسين (ع) وأنصاره، وعشرات من أمثالهن، حفظن ثورة الحسين من أن يطمرها الإعلام الأمويّ الغاشم، ووقفن شامخات مع أبطال كربلاء في الدفاع عن دين الله وذرّيّة رسول الله (ص) وحريم الإسلام. والمرأة المسلمة المعاصرة في ظروف الصراع بين الإسلام والكفر بحاجة إلى أن تعرف موقعها من نهضة الحسين (ع) لتواصل مسيرتها على هذا الخطّ.

ونحن اليوم بحاجة شديدة إلى استعادة الدور الزينبيّ للمرأة المسلمة المعاصرة في ساحتنا، في صراعنا مع الظالمين والطغاة والمخرّبين وحملة الإرهاب والاحتلال. إنّ حضور المرأة في الساحة، وقيامها بمسؤوليّاتها الثقافيّة والسياسيّة والحركيّة الإنسانيّة والعلميّة ركن أساسيّ من أركان مشروعنا السياسيّ الثقافيّ، ومن دون الحضور الواسع والفاعل والواعي للمرأة لا يكتمل هذا المشروع.

لقد تحمّلت المرأة شطرًا كبيرًا من الخطاب الحسينيّ في عاشوراء.

وهذه المسؤوليّة انتقلت من نساء كربلاء، جيلًا بعد جيل، إلى المرأة المسلمة المعاصرة التي تنهض اليوم بمسؤوليّة هذا الخطاب في واقعنا السياسيّ والحضاريّ.

وليس في الإسلام تجاه السلوك الميدانيّ والاجتماعيّ والثقافيّ والسياسيّ للمرأة إلّا كلمتَين نَبْقى نُصرّ عليهما في كلّ الظروف. هاتان الكلمتان هما: أن لا تفرّط المرأة في حركتها وعملها في حدّ من الحدود التي ألزمها الله تعالى بها في الحجاب والعفاف؛ وأن لا تفرّط بسلامة أسرتها واستقرارها.

فالأسرة تشكّل اللبنة الأساس التي يقوم عليها المجتمع، وإذا تصدّعت تعرّض المجتمع الذي يقوم على هذا الأساس لأخطار حقيقيّة في مقوّماته الحضاريّة. وهذه الأخطار هي التي تهدّد اليوم الكيان الحضاريّ للغرب بالسقوط. وليس السقوط عنهم ببعيد، كما سقطت حضارة الإلحاد من قبلهم في الاتّحاد السوفياتيّ.

هاتان الكلمتان تعطيان قوّةً لشخصيّة المرأة في مشاركتها في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والعلميّة والإنسانيّة، والتجارب المعاصرة الكثيرة في إيران والعراق ولبنان ومصر وتركيا وبلاد الخليج وغيرها من أقاليم العالم الإسلاميّ تؤيّد هذه الحقيقة.

ولن يكون هذا ولا ذاك سببًا لتغييب دور المرأة المؤمنة الملتزمة من المشاركة في الحياة الثقافيّة والسياسيّة والعلميّة والإعلاميّة والمهنيّة (من قبيل الطبّ). فمن الممكن أن تشارك مع المحافظة التامّة على كامل الحدود الإلهيّة في حجابها وعفافها ووقارها الأنثويّ، وفي نفس الوقت تعطي لبيتها وزوجها وأولادها حقّهم من الرعاية الواجبة. ولنا على ذلك أمثلة وشواهد كثيرة، إذا شاءت المرأة أن تنظّم أوقاتها فلن يكون هذا ولا ذاك سببًا لتعطيل طاقات المرأة.

إنّما السبب الحقيقيّ يعود إلى أمر آخر يعرفه الناس غالبًا، وهو أنّ الأنظمة الفاسدة التي كانت تتعاقب على بلادنا تعمد إلى حجب المرأة المسلمة الملتزمة عن المشاركة في ساحات الحياة الواسعة، وتفسح المجال للمرأة غير الملتزمة في الوزارات، والصحافة والتلفزيون والإذاعة، والمؤتمرات، بل حتّى الجامعات بشكل واضح ومقصود. ولست أدري ماذا الذي في حجاب المرأة ووقارها يخيف هؤلاء.

ويعجب الإنسان عندما يقف على مشاهد محسوسة من هذا التوجّس والخوف الشديد من قطعة الحجاب التي على شعر المرأة. وكمثل على ذلك، يقف النظام التركيّ السابق العلمانيّ يقف عاجزًا مهزومًا أمام النائبة التركيّة البطلة السيّدة قاوقجي التي أصرّت على أن تدخل البرلمان التركيّ بحجابها، فيتحمّل حكام تركيا هذا العار الذي ليس من بعده عار، ويحولون بينها وبين الدخول في البرلمان، ويسقطون جنسيّتها التركيّة حتّى لا يدخل الحجاب البرلمان التركيّ.

فما ترى هو السبب في كلّ هذا الرعب الذي يدخل نفوسهم من حجاب امرأة فقط؟!

وينتاب الإنسان العجب من هذا التصرّف الغريب الذي يقوم به نظام أوروبيّ عتيد مثل فرنسا، حاملة راية الديمقراطيّة والحرّيّة وحقوق الإنسان في الغرب، تجاه عدد من الفتيات المسلمات المراهقات اللواتي يردن المدارس بحجابهنّ، فلا يقرّ للدولة الأوروبيّة العتيدة قرار حتّى تصدر منعًا قانونيًّا يشرّعه البرلمان الفرنسيّ، مهد الحرّيّات وحقوق الإنسان، ولا يحقّ لهنّ بموجبه الدخول إلى مدارسهنّ إلّا بنزع الحجاب.

والكثير من الأنظمة التي تحكم بلادنا، هي امتداد لتلك الأنظمة، يزعجهم الحجاب، وتخيفهم المرأة الملتزمة، فيحولون بينها وبين المشاركة الواسعة في ساحات الحياة، ويملؤون هذا الفراغ الكبير بالمرأة

غير الملتزمة، وهي غير مؤهّلة لأن تبرز الوجه القويّ والصامد والمبدع للمرأة عندنا.

لقد عانت المرأة المسلمة في فترة النظام البعثيّ الفاسد من ظلم كثير، وتحمّلت هذا الظلم في المهاجر، وهي مهاجرة إليها بلا وثيقة وهويّة قانونيّة، وفي السجون بلا حرّيّة، وفي بيوتهم بلا أمان وكرامة، مع الرجل جنبًا إلى جنب، تحمّلت معه كما تحمّل، وصمدت معه كما صمد.

إنّ فترة المحنة الطويلة في الداخل وفي الخارج أكسبت المرأة المسلمة العراقيّة الكثير من المواهب والكفاءات والقدرات والوعي والخبرة. وإنّ المحنة مُرّة وليس أمرّ منها، ولكنّ ثمراتها القريبة والبعيدة طيّبة مباركة. والمرأة العراقيّة خرجت من المحنة شامخةً مرفوعة الرأس، قد زادتها المحنة الطويلة إيمانًا على إيمانها، وكفاءة على كفاءتها، وصرامةً وصمودًا على صمودها، وقوّةً على قوّتها، ووعيًا على وعيها، واعتزازًا بشخصيّتها. وهي الآن تدخل الحياة من أوسع الأبواب بعد أن انتهت فترة المحنة، بكامل شخصيّتها الإسلاميّة.

وسوف تعود بنت الهدى وتلميذاتها إلى ساحات الحياة الرحبة، مشاركات، عاملات، متحمّلات لمسؤولياتهنّ الصعبة بكلّ صبر وجَلَد وسعة صدر، وسوف يرى الناس جميعًا أنّ الإسلام وأعرافنا الاجتماعيّة المشتقّة منه يحصّنان المرأة ولا يعطّلانها، ولا يحجبانها عن المشاركة الفعّالة في الحياة. وإنّي لأسمع أحيانًا من خلال التلفزيون خطاب المرأة المعاصرة في البرلمان وقدرتها على التحليل السياسيّ ووعيها، وهي تحتفظ بكامل حجابها، فأشعر باعتزاز، وأشعر أنّ الله تعالى قد حقّق لنا ما وعدنا من النصر والتأييد، بعد أيّام غربة الإسلام الطويلة، أكثر ممّا كنّا نتصوّره بكثير.

التحدّي والتحدّي الآخر
رؤية حضاريّة حركيّة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام

تقديم

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾[1].

لزيارة الإمام الحسين (ع) بكربلاء تاريخ طويل، مثخن بالجراح، ومخضّب بالدم، بدءًا من يوم والصراع فيه بين أنصار الحسين وشيعته وأوليائه ومن جهة، وأعدائه ومبغضيه والناصبين له العداء من جهة أخرى، وصولًا إلى يومنا هذا، حيث أصبح هذا الصراع مشهدًا من مشاهد سنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع.

فلا زال أعداء الحسين (ع) ومبغضوه يتحدّون أنصاره وأوليائه ويمنعونهم من زيارته والاحتفاء بقبره، بل ويكفّرونهم ويرمونهم بالشرك. ولا يزال مرقد سيّد الشهداء عليه السلام يستقطب عشرات الملايين من المؤمنين من مشارق الأرض ومغاربها كلّ عام، حتّى عاد قبره بيت ولاءٍ لأوليائه ومحبّيه.

وبين هذا الاحتفاء والاهتمام والزيارة، ركبانًا ومشاة، من القارّات الخمس على وجه الأرض لمرقد الإمام الحسين (ع)، وبين محاولات الأعداء من الجبابرة والطغاة لتحجيم هذه الظاهرة وتقليصها ومنعها؛ أقول: بين هذا الاحتفاء وهذا التحدّي والتخريب يلمس الإنسان يد الله تعالى وتأييده وإسناده، فلا يزال الطغاة والجبابرة إلى اليوم يحاربون المشاهد المليونيّة لزيارة مرقد سيّد الشهداء عليه السلام، ولا يزال الناس يواجهون هذا التحدّي بالمقاومة والإصرار ومضاعفة الجهد والبذل والعطاء.

ويقف الإنسان على مشاهد إقبال جمهور الموالين في مناسبات كالخامس عشر من شهر شعبان وفي ذكرى الأربعين مشدوهًا أمام هذه

(١) سورة الصفّ، الآية ٨.

الأمواج الملايينيّة التي تقبل إلى كربلاء مشيًا على الأقدام من كلّ محافظات العراق، من الجنوب إلى الشمال، ومن البلاد المجاورة للعراق أيضًا.

ما الذي يحرّك هذا الجمهور الملايينيّ العظيم باتّجاه كربلاء، من دون إعلام ولا تخطيط، ولا إعداد ولا تحضير؟ ولو أنّ إنسانًا أطلّ على العراق من على قمرٍ اصطناعيّ لوجد ما لا ينقضي منه عجبه، كيف تصبّ هذه الجماهيرُ الحسينيّة في كربلاء من كلّ العراق والجادات المفضية إلى كربلاء. وكأنّها روافد من البشر تصبّ من كلّ المحافظات العراقيّة ومن كلِّ المدن والأقضية والنواحي والبلاد المجاورة في بحر كربلاء. ولو أنّ دولًا كبرى بذلت المليارات وخطّطت وأعلنت وحفزّت وأعدّت لمثل هذا المشهد، لما تسنّى لها تحقيق شَبَه لمثل هذا المشهد الملايينيّ العظيم. أليست يد الله تعالى وراء هذا المشهد؟ وهل يمكن إعداد مثل هذا المشهد العظيم من دون المشيئة والمباركة الإلهيّة له؟

في هذه المقالة سوف أتحدّث عن قضيّة مرقد الحسين عليه السلام وزيارته بين الأولياء والأعداء. ولماذا ينفر الطغاة والجبابرة في التاريخ من هذا المشهد العظيم؟ ولماذا يفشلون مرّةً بعد أخرى كلّما حاولوا تخريب هذا المشهد أو تقليصه وتحجيمه وتضبيبه وتعتيمه إعلاميًّا، والاستخفاف به؟ وما هو سرّ هذا النفور والكراهية؟ وسرّ هذا الفشل والخيبة؟ وما هو سرّ هذا الإقبال العظيم من جماهير المؤمنين على زيارة الحسين عليه السلام؟

يشهد التاريخ الإسلاميّ منذ مصرع الحسين (ع) وأنصاره إقبالًا متصاعدًا من جمهور المسلمين لزيارة الحسين وإقامة مجالس النياحة عليه، كما يشهد التاريخ الإسلاميّ في مقابل هذه الظاهرة المتصاعدة توجّسًا وتخوّفًا من قبل الطغاة والجبابرة من هذه المشاهد، وعنفًا وقسوةً بالغةً في مقابلة مشاهد الزيارة والنياحة ومحاربتها.

وكان من هذه المشاهد تخريب قبر الإمام الحسين (ع) وهدمه، ومنع المسلمين من زيارته ومعاقبتهم على ذلك، وكانوا يفرضون على الطرق المفضية إلى كربلاء سيطرةً عسكريّة، فإذا شكّوا بأحد عرّضوه لعذاب شديد، وذلك لإرهاب عامّة المسلمين ومنعهم من زيارة الحسين (ع).

وفي هذا المقال سوف أقدّم - إن شاء الله - عرضًا سريعًا لبعض مشاهد التحدّي والإلغاء ومقابلة شعائر الزيارة والنياحة على الإمام (ع) بالعنف والإرهاب والقتل والتعذيب وقطع الأكفّ والرؤوس.

في عهد المنصور الدوانيقي

رغم أنّ حكومة بني العبّاس قامت على هتافات يا لثارات الحسين (ع)، فقد وجد بنو العباس في مشاهد الزيارة والنياحة والالتفاف بقضيّة الإمام الحسين عليه السلام خطرًا يهدّد حكومتهم. وقد كان المنصور الدوانيقي يمنع من زيارة الإمام (ع)، وأمر بهدم قبره، واستمرّت هذه السيرة المنكرة حتّى أيّام هارون العبّاسيّ.

في عهد هارون العبّاسيّ

بذل هارون العبّاسيّ جهدًا كبيرًا في منع الناس عن زيارة الحسين (ع)،

وهدم الدور والأبنية التي أقامها الناس حول مرقد الإمام، كما أمر بقطع السدرة التي كان الزائرون يستظلون بها عند القبر الشريف. وقد رُوي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: أنّه قال: «لعن الله قاطع السدرة». ولم يكن الناس يعلمون معنى هذا الحديث إلى أن أمر هارون بقطع السدرة(٢).

رُوي عن يحيى بن المغيرة الرازي أنّه قال: كنت عند جرير بن عبد الحميد إذ جاءه رجل من أهل العراق فسأله جرير عن خبر الناس فقال: تركت هارون وقد كرب قبر الحسين (ع) وأمر أن تقطع السدرة التي فيه، فقطعت. قال: فرفع جرير يديه وقال: الله أكبر جاءنا فيه حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: لعن الله قاطع السدرة ثلاثًا، فلم نقف على معناه حتّى الآن(٣).

وكان القصد من قطعها إزالة معالم قبر الحسين (ع) حتّى لا يقف الناس على قبره. وكان أشدّ بني العبّاس على ذلك الخليفة الناصبيّ المتوكّل بن المعتصم العبّاسيّ، وقد أنفذ عدّة مرات، بلغت اثني عشرة مرّة على قول بعض المؤرّخين، جماعات وقادة عسكريّين لتخريب قبر الإمام الحسين (ع) وكربه ومعاقبة زوّاره.

وروى الشيخ الطوسي بسند عن عليّ بن عبد المنعم بن هارون الخديجي الكبير من شاطئ النيل، قال:

حدّثني جدّي القاسم بن أحمد بن معمر الأسدي الكوفيّ، وكان له علم بالسيرة وأيّام الناس، قال: بلغ المتوكّل جعفر بن المعتصم أنّ أهل السواد يجتمعون بأرض

---

(٢) روى البيهقي في السنن الكبرى بسنده عن جعفر بن محمّد بن عليّ عن أبيه عن جدّه عن عليّ، قال قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أخرج فأذّن في الناس من الله لا من رسوله لعن الله قاطع السدرة»؛ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر، السنن الكبرى، الجزء ٦، الصفحة ١٤٠، الحديث ١١٥٤٥؛ المتقي الهندي، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، الجزء ٣، الصفحة ٨٩٥، الحديث ٩٠٦٨؛ محمّد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة، الجزء ٢، الصفحة ١١٤.

(٣) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٤٥، الصفحة ٣٩٨؛ أبي جعفر محمّد بن عليّ بن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، الجزء ٤، الصفحة ٦٤.

نينوى لزيارة قبر الحسين عليه السلام، فيصير إلى قبره منهم خلق كثير، فأنفذ قائدًا من قوّاده، وضمّ إليه كتفًا من الجند كثيرًا ليشعب قبر الحسين عليه السلام، ويمنع الناس من زيارته والاجتماع إلى قبره. فخرج القائد إلى الطفّ، وعمل بما أمر، وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائتين، فثار أهل السواد به واجتمعوا عليه، وقالوا لو قتلنا عن آخرنا لما أمسك من بقي منّا عن زيارته، ورأوا من الدلائل ما حملهم على ما صنعوا، فكتب بالأمر إلى الحضرة، فورد كتاب المتوكّل إلى القائد بالكفّ عنهم والمسير إلى الكوفة مظهرًا أنّ مسيره إليها: فمضى الأمر على ذلك حتّى كانت سنة سبع وأربعين، فبلغ المتوكّل أيضًا مصير الناس من أهل السواد والكوفة إلى كربلاء لزيارة قبر الحسين عليه السلام، وأنّه قد كثر جمعهم كذلك، وصار لهم سوق كبير، فأنفذ قائدًا في جمع كثير من الجند، وأمر مناديًا ينادي ببراءة الذمّة ممّن زار قبر الحسين عليه السلام، ونبش القبر وحرث أرضه، وانقطع الناس عن الزيارة، وعمل على تتبّع آل أبي طالب والشيعة رضي الله عنهم، فقتل ولم يتمّ له ما قدّر[٤].

ويروي أبو الفرج الأصفهاني في **مقاتل الطالبيّين** عن محمّد بن الحسين الآشناني، قال:

بَعُدَ عهدي بالزيارة [أي زيارة الحسين عليه السلام] في تلك الأيّام خوفًا، ثمّ عملت على المخاطرة بنفسي فيها وساعدني رجل من العطّارين على ذلك، فخرجنا زائرَين، نكمن النهار ونسير الليل، حتّى أتينا نواحي الغاضريّة، وخرجنا منها نصف الليل فسرنا بين مسلحتين، وقد ناموا حتّى أتينا القبر فخفي علينا، فجعلنا نشمّه ونتحرّى جهته حتّى أتيناه، وقد قُلِعَ الصندوق الذي كان حواليه وأُحرق، وأُجري الماء عليه فانخسف موضع اللبن وصار كالخندق، فزرناه وأكببنا عليه فشممنا منه رائحة ما شممت مثلها قطّ كشيء من الطيب، فقلت للعطّار الذي كان معي: أيّ رائحة هذه؟ فقال: لا والله ما شممت مثلها كشيء من العطر، فودّعناه وجعلنا حول القبر علامات في عدّة مواضع فلمّا قتل المتوكّل اجتمعنا مع

(٤) أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، **أماليّ الطوسي** (قم: دار الثقافة، ١٤١٤هـ)، الصفحة ٣٧٤.

جماعة من الطالبيّين والشيعة حتّى صرنا إلى القبر فأخرجنا تلك العلامات وأعدناه إلى ما كان عليه(٥).

وفي مقاتل الطالبيّين أيضًا:

بعث المتوكّل برجل من أصحابه يقال له ديزج، وكان يهوديا فأسلم إلى قبر الحسين عليه السلام، وأمره بكرب قبره ومحوه وإخراب كلّ ما حوله، فمضى ذلك وخربّ ما حوله، وهدّم البناء وكرب ما حوله نحو مائتي جريب، فلمّا بلغ إلى قبره لم يتقدّم إليه أحد، فأحضر قومًا من اليهود فكربوه، وأجري الماء حوله، ووكّل به مسالح بين كلّ مسلحتين ميل، لا يزوره زائر إلّا أخذوه ووجّهوا به إليه(٦).

وروى الشيخ الطوسي في الأمالي أيضًا عن محمّد بن جعفر بن محمّد بن فرج الرخجي، قال:

حدّثني أبي، عن عمّه عمر بن فرج، قال أنفذني المتوكّل في تخريب قبر الحسين [عليه السلام] فصرت إلى الناحية، فأمرت بالبقر فمرّ بها على القبور، فمرّت عليها كلّها، فلمّا بلغت قبر الحسين [عليه السلام] لم تمرّ عليه. قال عمّي عمر بن فرج فأخذت العصا بيدي، فما زلت أضربها حتّى تكسّرت العصا في يدي، فوالله ما جازت على قبره ولا تخطّته.

قال لنا محمّد بن جعفر كان عمر بن فرج شديد الانحراف عن آل محمّد صلّى الله عليه وآله فأنا أبرأ إلى الله منه، وكان جدّي أخوه محمّد بن فرج شديد المودّة لهم رضي الله عنه فأنا أتولّاه لذلك وأفرح بولادتي منه(٧).

---

(٥) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيّين**، الصفحة ٨٩.
(٦) المصدر نفسه، الصفحة ٨٩.
(٧) **أماليّ الطوسي**، مصدر سابق، الصفحة ٣٧٠.

في عهد المستعصم

انفرج الأمر نسبيًّا في عهد المنتصر بن المتوكّل، ولكن عاد بعد ذلك إلى ما كان عليه، حتّى جاء المستعصم العبّاسيّ فأمر بمنع الزيارة ومعاقبة الزائرين ومنع إقامة مجالس النياحة إلّا في مقابر قريش عند مرقد الإمامين الكاظم والجواد (ع). فكان مقام الكاظمَين (ع) يزدحم بشيعة أهل البيت (ع) في أيّام عزاء الحسين (ع)، وكان أهل الكرخ يقيمون مجالس العزاء بجوار الإمامين الكاظمَين (ع)، حتّى سقطت دولة بني العبّاس.

التحدّيات الوهابيّة

تعرّض الحائر الحسينيّ بعد ذلك لسلسة من الغارات والهجمات العسكريّة التخريبيّة.

ففي سنة ١٢١٦، جهّز سعود بن عبد العزيز بن محمّد بن سعود الوهابي النجدي جيشًا من أعراب نجد، ويقول بعض مؤرّخي الإفرنج أنّه يقرب من ستمئة هجان وأربعمئة فارس، وغزا به العراق وحاصر مدينة كربلاء مغتنمًا فرصة غياب جلّ الأهلين في النجف لزيارة الغدير، ثمّ دخلها يوم ١٨ ذي الحجّة عنوةً، وأعمل في أهلها السيف، فقتل منهم ما بين الأربعة إلى الخمسة آلاف، وبينهم الشيوخ والأطفال والنساء، ولم ينجُ منهم إلّا من تمكّن من الهرب أو الاختباء، ونهب البلد والحضرة الشريفة، وأخذ جميع ما فيها من فرش وقناديل وغيرها، وهدم القبر الشريف، واقتلع الشبّاك الذي عليه، وربط خيله في الصحن المطهّر، ودقّ القهوة وعملها في الحضرة الشريفة، ونهب من ذخائر المشهد الحسينيّ الشيء الكثير ثمّ كرّ راجعًا إلى بلاده[٨].

---

(٨) محسن الأمين، أعيان الشيعة، الجزء ١، الصفحة ٦٢٩.

وذكر المستشرق المؤرّخ لونكريك هذا الحادث في كتابه المعروف **تاريخ العراق الحديث**، نذكر كلامه نقلا عن **موسوعة العتبات المقدّسة**:

دخلت القوّات الوهابيّة كربلاء في عشيّة اليوم الثاني من نيسان عندما كان معظم سكّان البلدة في النجف يقومون بأداء الزيارة (زيارة الغدير)، فسارع من كان في المدينة لإغلاق الأبواب، غير أنّ الوهابيين وقد قُدِّروا بستمائة هجان وأربعمائة فارس نزلوا وقسّموا قوّتهم إلى ثلاثة أقسام، هاجموا أقرب باب من أبواب البلدة فتمكّنوا من فتحه عنوةً ودخلوا المدينة فذعر السكّان، وأصبحوا يفرّون على غير هدى، أمّا الوهابيّون الغلاظ، فقد شقّوا طريقهم إلى الأضرحة المقدّسة وأخذوا يخربونها، فاقتُلعت القضب المعدنيّة والسياج ثمّ المرايا الجسيمة، ونُهبت النفائس والحاجات الثمينة من هدايا الباشوات وملوك الفرس والأمراء، وكذلك سُلبت زخارف الجدران وقُلع ذهب السقوف، وأُخذت الشمعدانات والسجّاد الفاخر والمعلّقات الثمينة والأبواب المرصّعة، وجميع ما وجد من هذا الضرب فسُحبت إلى الخارج، وقُتل زيادةً على هذه الأفاعيل قرابة خمسين شخصًا بالقرب من الضريح في الصحن. أمّا البلدة نفسها فقد عاث الغزاة المتوحّشون فيها فسادًا وتخريبًا، وقتلوا من دون رحمة جميع من صادفوه، كما سرقوا كلّ دار ولم يرحموا الشيخ ولا الطفل، ولم يحترموا النساء ولا الرجال، فلم يسلم الكلّ من وحشيّتهم ولا من أسرهم. ولقد قدّر بعضهم عدد القتلى بألف نسمة[٩].

وفي سنة ١٢٢٢، تكرّر الهجوم الوهابيّ على مدينة كربلاء، فهاجمها سعود بن عبد العزيز بجيش كثيف يقدّره المؤرّخون بعشرين ألف.

(٩) جعفر الخليلي، **موسوعة العتبات المقدّسة**، الجزء ٨، الصفحتان ٢٧١ و٢٧٢.

التحدّيات العثمانيّة

تعرّضت كربلاء لحصار من قبل نجيب باشا في عهد السلطان عبد المجيد الثاني عام ١٢٥٨هـ، حيث دخل المدينة بعد أن ضربها بالمدافع، واستباحها ثلاثة أيّام سلبًا ونهبًا وقتلًا، وارتكب فيها كلّ فظاعة وشناعة، وعمل السيف في رقاب الناس الآمنين، فقتل عشرين ألف شخص – كما في كتاب **شهداء الفضيلة** – ولجأ الناس إلى ضريح الإمام الحسين (ع) يستنجدون ويستغيثون به، لكنّ الجيش دخل الحرم، وقتل كلّ من لاذ بالقبر[١٠]. كما وتعرّضت المدينة المقدّسة لحوادث أخرى على مدى حكم آل عثمان.

التحدّيات المعاصرة

وممّن عاصرناه ممّن تحدّى زيارة الحسين (ع) والنياحة عليه وإقامة الشعائر الحسينيّة رضا خان بهلوي، مؤسّس الأسرة البهلويّة الفاسدة في إيران. فقد منع إقامة مجالس العزاء الحسينيّة ومواكب العزاء، ومنع عقد المآتم والبكاء على سيّد الشهداء (ع).

وكان الناس يتخفّون في عهده لإقامة مجالس العزاء حتّى أهلكه الله وأخذه أخذ عزيز مقتدر وأراح البلاد والعباد منه ومن ابنه الفاسد وأسرته الفاسدة.

وتعرّضت كربلاء والحائر الحسينيّ سنة ١٩٩١م لهجوم عسكريّ غادر ومجزرة بشريّة كبيرة من قبل نظام صدّام التكريتي على يد صهره حسين كامل، وقتل جمعًا كبيرًا من عامّة الناس، ورُمي القبر الشريف بالرصاص. وقد شوهدت آثار الرصاص على رخام الحرم الشريف في

---

(١٠) سلمان هادي آل طعمة، تراث كربلاء، الصفحات ٣٧٦ و٣٨٥.

مواضيع كثيرة من الحائر الحسينيّ، ولا زال بعض هذه الآثار موجوداً إلى الآن. وقد انتقم الله تعالى من هذا الخبيث، أيضًا، وأخذه أخذ عزيز مقتدر. وكلّنا قد شاهد هذا الانتقام الإلهيّ الأليم، من الطاغية الذي دخل الصحن الحسينيّ الشريف يومًا متحدّيًا يقول: «أنا حسين وأنت حسين!».

وقد منع صدّام التكريتي زيارة الحسين (ع) مشيًا على الأقدام، وكان يعاقب المشاة بالسجن والتعذيب، وكان المشاة من زوّار الحسين يتخفّون نهارًا ويمشون ليلًا حتّى هلك الخبيث، وأعلن الناس زيارة الحسين مشيًا على الأقدام بصورة مليونيّة واسعة، تملأ السمع والبصر والقلب.

التحدّيات الرهيبة الأخيرة

لمّا سقط نظام صدّام في العراق، أقبل الناس على زيارة مرقد الحسين (ع) أفواجًا، فتصدّت لهم زمر القاعدة الإرهابيّة بالتفجيرات الرهيبة في كربلاء، وفي مسير الزائرين المشاة من المدن العراقيّة إلى كربلاء في كلّ مواسم الزيارة المعروفة. وقد قتلوا منهم لحدّ اليوم جموعًا غفيرةً من الأبرياء، وجرحوا منهم الآلاف ممّن لا ذنب لهم إلّا الإقبال على زيارة مرقد الإمام الحسين (ع) مشيًا على الأقدام.

ولا تزال حلقات هذه الحركة الحاقدة على الإمام الحسين (ع) ونهضته وزوّاره والنائحين عليه منذ يوم الطفّ حتى يومنا هذا. وقد ورث بنو العبّاس هذا الحقد من بني أميّة، وتوارثته عنهم الحكومات والجماعات الحاقدة، جيلًا بعد جيل، إلى اليوم. ولسنا نعلم متى ينتهي هذا الحقد والتحدّي الرهيب، إلّا أنّنا نعلم أنّ جماهير الناس لا يزالون يقابلون هذه التحدّيات الدمويّة الرهيبة بالمقاومة والثبات والصمود، ولم تؤثّر هذه

الحركات الهمجيّة الحاقدة في إرادة الناس وعزمهم وبصائرهم أبدًا. وصدق الله العليّ العظيم إذ قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[11].

لماذا التحدّي؟

إنّ لموقف السلاطين من قضيّة الإمام الحسين (ع) لسرًّا، لا بدّ من التوقّف عنده. فلا يزال الحكام الظلمة الطغاة يجدون في احتفاء الناس بعاشوراء وكربلاء تحدّيًا وتهديدًا لموقعهم وسلطانهم، ولا يزالون يتعاملون معها من موقع التوجّس والخيفة والمواجهة، منذ عصر بني أميّة، مرورًا ببني العبّاس، وحتّى يومنا هذا. وقد عاصرنا حاكمَين معاصرَين في العراق وإيران كانا يقابلان مشاهد الزيارة والنياحة الحسينيّة بالإرهاب والحظر والعنف، فما السرّ في ذلك؟

يجد جمهور المستضعفين في عاشوراء وكربلاء ملاذًا وملجًا يحتمون به، ويرفعون من خلالهما ظلامتهم، ويجدون فيهما قوّةً وعزمًا ووعيًا وثقة بالله، يجبر ضعفهم ويثبّت أقدامهم. ويجد الظالمون في عاشوراء وكربلاء قلعةً تحمي المستضعفين، وتتحدّى الظالمين، ومدرسةً تثقّفهم، وتمنحهم الوعي، ومددًا إلهيًّا يمنحهم القوّة والعزم والثقة بالله.

ويخطئ من يتصوّر أنّ النياحة في قضيّة عاشوراء تنفيس للهموم والأحزان. فلو كان الأمر كذلك لما دام أربعة عشر قرنًا، منذ شهادة الإمام (ع) إلى اليوم، بل كان لينقضي في أيّام وأسابيع معدودة، بل في بضعة شهور على أحسن تقدير. ولأنّ عمر هذه المسألة امتدّ قروناً عدّة، فلا بدّ أن نبحث عن سبب معقول آخر لذلك، يفسّر استمرارها رغم كلّ التحدّيات.

---

(١١) سورة التوبة، الآية ٣٢.

وليس ذلك إلّا لأنّ الجمهور يجد في عاشوراء وكربلاء إذكاءً للهيب الثأر والانتقام من الظالمين، وتأجيجًا وتحريكا للنفوس، ووعيًا لمسؤوليّة المستضعفين، وقد جعل الله تعالى فيها من الإمداد الغيبيّ للنفوس والقلوب ما لا تناله أدواتنا التحليليّة التي نحلّل بها التاريخ والمجتمع.

استمراريّة حركة التحدّي والإلغاء

لم تكن هذه التحدّيات أوّل ما شهده التاريخ الإسلاميّ القديم من تحدّيات، ولن تكون آخر ما شهده الواقع وسيشهده المستقبل. وإنّما هي سلسلة متّصلة من التحدّيات من جبّار إلى جبّار، ومن طاغية إلى طاغية، ما دام على وجه الأرض توحيد وشرك وعدل وظلم، واستقامة وانحراف، وحقّ وباطل، واستكبار واستضعاف. وتقابل هذه التحدّيات مقاومةً متزايدةً متصاعدةً من الجهة المقابلة. فلماذا إعلان الحرب؟ وما الذي يخشاه الطغاة والجبابرة من عاشوراء وكربلاء؟

إنّهم يجدون في إحياء عاشوراء تهديدًا لعروشهم وسلطانهم، ولا نعرف سببًا وجيهًا آخر غير ما قلنا يدعوهم إلى هذه المقابلة الضارية والعنف المتزايد تجاه قضيّة الحسين (ع).

ولكن، أين يمكن هذا الخطر الذي يهدّد عروشهم وسلطانهم؟ لقد أشرت إلى ذلك في مقدّمة المقال، وها أنا ذا أبسط القول في هذه النقطة بما يسعه المقال.

إنّنا نجد في زيارة الإمام الحسين عليه السلام عنوانين يستحقّان التوقّف والتأمّل، وفي هذين العنوانين نقرأ نحن بعض سرّ انشداد الجمهور لعاشوراء ونفور الطغاة والجبابرة منها ومحاربتهم لها. وهذان العنوانان هما:

١. ثقافة النهضة الحسينيّة وحادثة الطفّ.

٢. ثقافة الولاء والبراءة في نصوص الزيارات.

وفيما يلي أتحدّث عن هذين العنوانين، إن شاء الله، بما يتيسّر لي من القول في هذه المقالة.

١. ثقافة النهضة الحسينيّة (حادثة الطفّ)

إنّ عاشوراء وكربلاء حافلتان بثقافة الإيمان والأخلاق، والحركة والقيام والثورة، والاستهانة بالظالمين واحتقارهم، والتضحية والعطاء، والثقة بنصر الله تعالى، والشهادة، والقرار والموقف، والاستهانة بالحياة الدنيا، وابتغاء وجه الله، والشجاعة والقوّة والصمود ورفض الظلم ورفض الذلّ، والشموخ والإباء والعزّة والكرامة، والاستهانة بالظالم والأمر بالمعروف، وما لا يسعني إحصاؤه في هذه العجالة من القيم والثقافات التي تحيا بها الإنسانيّة الحياة الطيّبة التي أرادها الله لها.

وإليك طائفةً من ثقافات النهضة الحسينيّة في حادثة الطفّ.

أ. الثورة على الظالم وتحريم قبول الظلم والدعوة إلى الجهاد

خاطب الحسين (ع) أصحابه وأصحاب الحرّ في منزل البيضة، فقال:

> أيّها الناس إنّ رسول الله (ص) قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحرام الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله (ص)، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله.

التغيير بالقول هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاعتراض بالخطاب. والتغيير بالفعل هو الخروج والثورة على الظالم وكسر شوكته

وعزله وتهديم عرشه وسلطانه. والثاني مقدّم على الأوّل. ثمّ يقول (ع) بعدما يذكر طغيان بني أميّة، وإسرافهم وظلمهم وتجاوزهم لحدود الله: «وأنا أحقّ من غير»؛ فهو يقود بحقّ حركة التغيير بالخروج على سلطان بني أميّة.

ويقول (ع) في إعلان الجهاد والخروج على بني أميّة: «ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد وكثرة العدوّ وخذلان الناصر». إذ لم يمنعه من إعلان الخروج على بني أميّة قلّة العدد وكثرة العدوّ وخذلان الناصر.

ب. تعرية الظالم وفضحه

وحيث يتملّق ضعفاء النفوس للحكّام الظالمين ويخافونهم على دنياهم ويتقرّبون إليهم لينالوا فتاتًا محقّره منها، يتناول الإمام الحسين (ع) حكومة بني أميّة وطاغيتهم بالشجب والجرح والتسقيط، فيقول عليه السلام عنهم في امتداد الكلمة المتقدّمة:

> ألا وإنّ هؤلاء – بني أميّة – قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، أحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله.. وأنا أحقّ من غيّر.

وهو بهذه الكلمة يعلن أنّه أحقّ من يخرج ويثور عليهم.

ويقول لمروان بن الحكم، وقد نصحه أن يبايع يزيد بن معاوية: «فعلى الإسلام السلام، إذ قد بليت الأمّة براعٍ مثل يزيد. ولقد سمعت جدّي رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان».

لمّا امتنع الإمام (ع) أن يبايع يزيد عند أمير المدينة الوليد، طلب مروان من أمير المدينة أن لا يدعه يخرج من غير بيعة، وإن امتنع يضرب عنقه.

فقال مروان: «لا تقبل أيّها الأمير عذره، ومتى لم يبايع فاضرب عنقه». فغضب الحسين (ع)، وقال: ويلي عليك يابن الزرقاء[12]. كذبت والله ولؤمت.

ثمّ أقبل على الوليد، فقال:

أيّها الأمير، إنّا أهل بيت النبوّة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون.

ت. رفض الذلّ وإباء الضيم

للإمام الحسين (ع) خطاب يوم عاشوراء لا تزال أصداؤه تتردّد في أجواء التاريخ وفي العالم الإسلاميّ، وذلك عندما عرض عليه عمر بن سعد الأمان بشرط أن يصحبه إلى الكوفة، ليأخذ منه البيعة ليزيد عند ابن زياد، فقال (ع) مخاطبًا الناس:

ألا وإنّ الدعيّ بن الدعيّ، قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة. وهيهات منّا الذلّة. يأبى الله لنا ذلك ورسوله (ص)، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

فهو (ع) يرفض الذلّ والأمان الذي اقترحه عليه الدعيّ بن الدعيّ، عبيد الله بن زياد. فهو كان يخيّره بين القتل والذلّة، ويرفض الإمام ذلّة الخضوع للظلم، ويؤثر القتل على ذلك.

وفي موقف آخر يقول (ع) في جزم لما خيّره واقعه: «القتل أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار». هو يقدّم في هذه الثلاثيّة القتل على ركوب العار، ثمّ يقدّم العار على دخول النار، ومهما تردّد الأمر بين

(١٢) كانت الزرقاء جدّته، وكانت معروفةً في مكّة من ذوات الرايات.

القتل والعار لا يتردّد الإمام في قبول القتل ورفض الذلّ، وإذا تردّد الأمر بين العار والنار، فلا ينبغي التردّد في قبول العار على دخول النار، ومعنى النار هنا غضب الله وعقوبته.

ويخاطبهم (ع) في نفس الموقف قائلًا: «لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد». وقال لأخيه عمر الأطرف، وقد بلغه عزم الإمام الحسين (ع) على المسير إلى العراق فجاءه مجهشًا بالبكاء يطلب منه العدول عن السفر، فقال له:

> حدّثني أبي أنّ رسول الله (ص) وآله أخبره بقتله وقتلي، وأنّ تربته تكون بالقرب من تربتي والله لا أعطي الدنيّة من نفسي، ولتلقينّ فاطمة أباها شاكيةً ممّا لقيت ذريّتها من أمّته ولا يدخل الجنّة أحد آذاها في ذريّتها[١٣].

ث. احتقار الظالم

كما كان من ثقافات عاشوراء وكربلاء احتقار الظالم، وهو في قمّة مجده واستكباره وطغيانه. ولنستمع إلى خطاب بطلة كربلاء زينب (ع) ليزيد في مجلسه العامّ الذي أقامه ليحتفل بانتصاره على أبي عبد الله الحسين (ع)، وقد كان رأس الإمام بين يديه، وهو ينكث على شفتيه بقضيب بيده، حيث هبّت تخاطبه وتقول له: «ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك. إنّي لاستصغر قدرك وأستعظم تقريعك، وأستكثر توبيخك».

وتخاطب ابن زياد في الكوفة، وقد وضع رأس الإمام الحسين (ع) بين يديه، وهو يقرع ثناياه بحضرتها، فتقول له :«ثكلتك أُمّك يا بن مرجانة»، فيغضب وكأنّما همّ بقتلها، فقال له عمرو بن حريث: «إنّها

---

(١٣) عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد ابن طاووس، **اللهوف في قتلى الطفوف**، الصفحتان ٩ و١٠.

امرأة، والمرأة لا تؤخذ بشيء من منطقها». ومرجانة التي تنسبه بطلة كربلاء (ع) إليها هي امرأة فاجرة معروفة بالفجور ولدت عبيد الله.

إنّ احتقار الظالم يكسر شوكته الكاذبة، ويهدم جدار الرعب، فيتجرّأ الناس عليه، ويهدموا ملكه وسلطانه الذي أقامه على دماء المسلمين. ورحم الله عبد الله بن عفيف الذي كان حاضرًا في مسجد الكوفة لمّا أمر الخبيث ابن مرجانة بالاجتماع في الجامع الأعظم، وصعد المنبر وقال: «الحمد لله الذي أظهر الحقّ وقتل الكذّاب بن الكذّاب». فما زاد على هذا الكلام حتّى قام عبد الله بن عفيف – رضوان الله عليه – على قدمَيه، وكان من خيار الشيعة، وقد فقد إحدى عينيه في الجمل والأخرى في صفّين، وكان ملازمًا للمسجد الأعظم، يصلّي فيه إلى الليل، وناداه بكلّ صوته، يسمعه من في الجامع جميعًا: «يابن مرجانة: الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه... ياعدوّ الله...».

ج. انتصار الدم على السيف

وهو مصداق انتصار الحقّ على الباطل، الذي وعدنا به الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(١٤). وهي سنّة إلهيّة، ومن حتميّات التاريخ. وإليها تشير بطلة كربلاء زينب (ع) حين خاطبت يزيد، وهو في عنفوان غطرسته، في ملاء من الناس:

> فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك. فوالله لا تمحوا ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها. وهل رأيك إلّا فندًا، وأيّامك إلّا عددًا، وجمعك إلّا بددًا.

وهذا هو معنى القضيّة العميقة التي أطلقها الإمام الحسين (ع) في

(١٤) سورة الإسراء، الآية ٨١.

رسالته إلى بني هاشم وهو الفتح بالدم، وهو أنقى الفتوحات وأقوها. فكتب (ع) إلى بني هاشم لمّا فصل من المدينة: «أمّا بعد، فإنّ من لحق بي استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح والسلام».

وإذا ضممنا هاتين المعادلتين إلى بعض كان المعنى: من لحق بالإمام (ع) نال الشهادة، ومن نالها معه فتح الله على يده التاريخ، ومن تخلّف عنه لم ينل الشهادة ولا ينال، بالضرورة، الفتح.

ح. الدعوة إلى الشهادة

لقد دعا الإمام (ع) الناس في مكّة عشيّة رحيله إلى العراق إلى الشهادة معه، ولم يدعهم إلى نصر أو سلطان أو مال، إنّما دعاهم إلى الموت. فقال في خطابه المعروف الذي يرويه ابن طاووس في **اللهوف** في جمهور المسلمين في مكة ليلة الثامن من ذي الحجّة: «ألا ومن كان باذلًا فينا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحًا إن شاء الله».

ولم نعهد نحن من القادة العسكريّين من يدعو الناس إلى الشهادة بدل دعوتهم إلى النصر والسلطان. ولعلّ السرّ في ذلك أنّ هذا الفتح الذي يدعو إليه الإمام (ع) لا يناله أحد إلّا بالشهادة، وهو ما سبق ذكره.

خ. الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يشرح الإمام (ع) في خطابه للناس هدفه الأعلى من خروجه على يزيد، فيقول: «إنّي لم أخرج أشرًا، ولا بطرًا، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

وقد عقد (ع) اجتماعاً في منى، لمّا اتّسع طغيان معاوية وتجاوزه

على حدود الله، دعا إليه من تبقّى من أصحاب رسول الله (ص) وأبناء الصحاب والتابعين، وتحدّث فيه عن أهمّيّة مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومركزيّتها، ولامهم وعاتبهم عتابًا مُرًّا على التخلّي عن هاتين الفريضتين اللتين تقام بهما الفرائض. يروي مجريات هذا الحدث وبعض ما ألقاه الإمام فيه حسن بن علي بن شعبة الحرّاني في **تحف العقول**.

د. القرار والموقف

تكمن قيمة الإنسان في قراره وموقفه وثباته على الحقّ. ولقد كان الكثير من الناس يومئذٍ يتذمّرون من سلطان يزيد، بما يعرفون عنه من سكر ولهو وباطل وظلم وإسراف وانتهاك لحرمات الله. ولكنّ الإمام الحسين (ع) انفرد بقرار الخروج على يزيد ورفض بيعته، وأعلن الجهاد والخروج عليه، في موقف رافض صريح غير مهادن لحكم يزيد وسلطانه. فقال لأمير المدينة عندما دعاه إلى بيعة يزيد: «أيّها الأمير، إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمر، وقاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله». ولم يتحوّل سيّد الشهداء عن هذا الموقف أبدًا إلى ساعة مصرعه يوم عاشوراء «ومثلي لا يبايع مثله».

وقد خاطب المسلمين في مكّة، ودعاهم إلى الخروج معه على سلطان بني أميّة، ثمّ قال لهم: «وإنّي راحل مصبحًا إن شاء الله». وقال للناس الذين صحبوا حرّ بن يزيد الرياحي ليسلّموه إلى ابن زياد في الكوفة أنّه أحقّ من يتولى حركة التغيير في هذه الأمّة المنكوبة ببني أميّة «وأنا أحقّ من غيّر».

ذ. جهاد المرأة

إنّ الله تعالى رفع القتال عن المرأة في الحروب، ولكنّه لم يرفع عنها الجهاد، والقتال شعبة من الجهاد، وإنّ المرأة الحاضرة في المواجهة تستطيع أن تؤدّي دورًا كبيرًا في مقاومة الظالمين قد لا يتمكن الرجل من أدائه. وقد كان لجهاد النساء المواكبات لحركة الإمام الحسين (ع) وجهادهنّ دور عظيم في إفشال المشروع الأمويّ.

إنّ المشاركة العظيمة والحضور الواسع والمواقف الشجاعة لأخوات الحسين (ع) وبناته ونسائه ونساء أصحابه فضحت بني أميّة وأفشلت مشروعهم السياسيّ-الإعلامي الماكر. إنّ المرأة الحسينيّة واكبت هذه المسيرة منذ انطلاقتها الأولى من المدينة إلى المدينة. وكان الحسين (ع) قد خطّط لهذا الدور النسائيّ في مسيرته. يقول أرباب السيرة إنّ محمّد بن الحنفيّة – أخ الحسين (ع) – أصرّ عليه بالعدول عن الخروج إلى العراق، فوعده الحسين أن ينظر في الأمر. فلمّا خرج الحسين صبيحة اليوم الثامن من ذي الحجّة جاءه محمّد مرتاعًا وقال له ألم تعدني بأن تنظر في الأمر. قال (ع): بلى. ولكن أتاني رسول الله (ص) فقال يا حسين، أخرج فإنّ الله شاء أن يراك قتيلًا. فقال ابن الحنفيّة: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فما معنى حملك النسوة، وأنت تخرج على مثل هذه الحالة. فقال له: قال لي رسول الله (ص): إنّ الله شاء أن يراهنّ سبايا.

ر. الاستهانة بالحياة الدنيا

إنّ التعلّق بالحياة الدنيا رأس كلّ ذلّ وهوان ومعصية لله تعالى في حياة الإنسان، لأنّه إذا تعلّق بالدنيا يركب من أجل كسبها والحفاظ عليها كلّ ذلّ وهوان وعصيان، ويكون أسيرًا لها. وبعكس ذلك، إذا تحرّر الإنسان من التعلّق بالدنيا فإنّه يعيش بعزّ وكرامة، ويملك قراره ورأيه، ويتحكم

في موقفه، ولا يرضخ لطاغوت وجبّار قطّ.

ويعلّمنا الحسين (ع) في مسيرته وحركته وخطابه كيف نستهين بالدنيا، لننال كرامة الدنيا ونعيم الجنّة. فاستمع إليه (ع) يصف الدنيا في أيّامه:

ألا وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، فلم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعي الوبيل، وهو المرعى الذي اكتسحته الأوبئة النباتيّة. ألا ترون أنّ الحقّ لا يعمل به، وأنّ الباطل لا يتناهى عنه. ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًّا. فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برمًا.

إنّ الدنيا التي كان يركب إليها الناس كلّ حلال وحرام، وتروق لهم، ويشترونها بثمن دينهم وآخرتهم وكرامتهم، هي عند الإمام (ع) كالمرعى الوبيل، الموبوء، قد أدبر معروفها حتّى لم يبقَ فيها إلّاصبابة كصبابة الإناء.

ونتساءل لماذا؟ وقد أقبلت الدنيا على المسلمين يومئذ بعد الفتوحات حلوةً خضرة، تحلو للناس أكثر من أيّ وقت آخر. فلماذا يصفها الإمام بهذا الوصف؟

يقول (ع) في الجواب على هذا السؤال: «ألا ترون الحقّ لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه؟»، وفيه سرّ إنكاره (ع) للدنيا وبغضه لها في أيّام بني أميّة. وقد بلغ عزوفه عن دنيا يحكمها الظالمون، ويفسدها المفسدون، ويعيش فيها الناس مستضعفين، لا حول لهم ولا طول، غير الرضوخ للظلم حدًّا يقول معه أنّه «لا يرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين برمًا (أذى)».

ز. التوعية السياسيّة

يعتبر الإعلام المضلّل الشوّش شطرًا أساسيًّا في التحدّيات التي تواجهنا

في ساحة الصراع مع العدوّ. ولا يختصّ الإعلام المضلّل والتشويش السياسيّ من ناحية العدوّ بعصرنا، فقد كان بنو أميّة يستخدمون هذا الإعلام المضلّل والتشويش السياسيّ في الساحة على نطاق واسع.

وفي المقابل، لا بدّ من جهد واسع، مكافئ له، في التوعية السياسيّة لإحباط مشروع العدوّ في التضليل والتشويش. وقد مارس الحسين (ع) دور التوعية السياسيّة للأمّة في عهد معاوية وفي عهد يزيد بن معاوية على امتداد حركته من المدينة إلى كربلاء وصولا ليوم عاشوراء، على نطاق واسع.

وممّا يذكره المؤرّخون أنّ الإمام (ع) أقام في عهد معاوية، لمّا طال عهده وظلمه وإسرافه وتحريفه لدين الله، ما يشبه المؤتمر دعى إليه من تبقّى من أصحاب رسول الله (ص) وأولادهم وتابعيهم، وخطب فيهم خطابًا يذكره حسن بن علي بن حسين بن شعبة الحراني، وهو من أعلام القرن الرابع(١٥). وتبعه في ذلك العلّامة المجلسي في **بحار الأنوار**(١٦).

وأقام مؤتمرًا آخر في منى في سرادقه قبل موت معاوية بسنتين وثّق فيه فضائل والده الإمام علي بن أبي طالب (ع) وحقّه في الخلافة من بعد رسول الله (ص)، وأثبت تواترها باستشهاده (ع) لهم وإجابتهم له (ع) بالإيجاب والتصديق. وقد ذكر المؤتمر أيضًا أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، وهو من أعلام القرن الخامس، في كتابه **الاحتجاج**، فيقول:

> فلمّا كان قبل موت معاوية بسنتين حجّ الحسين بن عليّ وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عبّاس معه. وقد جمع الحسين بن عليّ بني هاشم، رجالهم ونساءهم ومواليهم وشيعتهم، ومن حجّ منهم، ومن لم يحجّ، ومن الأنصار من يعرفونه وأهل بيته، ثمّ لم يدع أحدًا من أصحاب رسول الله (ص) ومن أبنائهم والتابعين، ومن

---

(١٥) أبو محمّد الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحراني، **تحف العقول**، الصفحات ١٦٨ إلى ١٧٠.
(١٦) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٧، الصفحة ٨٠.

الأنصار المعروفين بالصلاح إلّا جمعهم. فاجتمع عليه بمنى أكثر من ألف رجل، والحسين (ع) في سرادقه، عامّتهم التابعون وأبناء الصحابة فقام الحسين (ع) فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

أمّا بعد، فإنّ الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم، وإنّي أريد أن أسالكم عن أشياء فإن صدقت صدّقتموني، وإن كذبت فكذّبوني، اسمعوا مقالتي واكتموا قولي، ثمّ ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم من أمّنتموه ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون، فإنّي أخاف أن يندرس هذا الحقّ ويذهب، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون.

فما ترك الحسين شيئًا أنزل الله فيهم من القرآن إلّا قاله وفسّره، ولا شيئًا قاله الرسول (ص) في أبيه وأمّه وأهل بيته إلّا رواه، وكلّ ذلك يقول الصحابة: اللّهم نعم قد سمعنا وشهدنا. ويقول التابعون: اللّهم قد حدّثنا من نصدّقه ونأتمنه، حتّى لم يترك شيئًا إلّا قاله، ثمّ قال: أنشدكم الله إلّا رجعتم وحدّثتم به من تثقون به ثمّ نزل وتفّرق الناس على ذلك[١٧].

ومنذ أن تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه معاوية لم يزل الحسين (ع) يخاطب الناس في أمر يزيد يكشفه ويعرّيه ويدعو الناس إلى الخروج عليه حتّى ساعة مصرعه في كربلاء يوم عاشوراء.

كما قال (ع) في منزل البيضة على طريق كربلاء:

أيّها الناس إنّ رسول الله (ص) قال من رأس سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحرام الله، ناكثًا عهده، مخالفًا لسنّة رسول الله (ص)، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغّير عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود،

(١٧) أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي، **الاحتجاج**، الجزء ٢، الصفحتان ١٨ و١٩؛ سُليم بي قيس الهلالي، **كتاب سُليم بن قيس**، الصفحة ٢٠٦؛ عبد الحسن الأميني، **موسوعة الغدير**، الجزء ١، الصفحة ١٩٨؛ الشيخ الشريفي، **كلمات الإمام الحسين**، الصفحة ٢٧٠؛ **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٤، الصفحة ١٢٧.

واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غير.

وقال (ع) في تعرية بني أميّة وفضحهم: «ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله. فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادةً، والحياة مع الظالمين إلا برمًا».

ويقول (ع) للقوم الذين دعوه لمؤازرته ونصرته خذلوه وقاتلوه: «سللتم علينا سيفًا لنا في إيمانكم، وحششتم علينا نارًا اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم، فأصبحتم إلبًا لأعدائكم على أوليائكم، من غير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيه».

لقد خاطبهم الإمام (ع) يوم عاشوراء بهذا الخطاب المؤثّر الحزين، الذي يعصر قلب صاحبه حزنًا لا عليه وفيما يؤول إليه أمره، وإنّما على الناس وما يقبلون عليه وما ينتهون إليه فيقول لهم أنّ السيف الذي تقاتلوني به اليوم هو السيف الذي جعلناه نحن في أيديكم، والسيف رمز القوّة في كلام العرب، وقد كان العرب قبل الإسلام معزولين في عمق الصحراء، لا يتّصلون بالحضارات القائمة في وقته، إلّا ما كان من شأن رحلة الشتاء والصيف، فأرسل الله تعالى رسوله محمّد بن عبد الله (ص) إليهم، فجعل منهم قوّةً على وجه الأرض تهابهم الدنيا، وهذا هو السيف الذي يشير إليه الإمام (ع) بأسىً وأسف. هذا السيف الذي تقتلون اليوم به آل محمّد في كربلاء هو السيف الذي جعله جدّنا رسول الله (ص) في أيديكم لتقاتلوا به أعداءنا وأعداءكم، فحرفتم أنتم السيف عن الرسالة التي جعلها الرسول (ص) لكم في قتال أعدائنا وأعدائكم، وشهرتموه في وجه آل محمّد وحرمه (ص)، وحششتم علينا نارًا اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم.

لقد كان ظهور الإسلام في جزيرة العرب ظهور نور ونار؛ نور يضيء القلوب والعقول والمسالك إلى الله وحياة الناس، ونارًا تحرق عروش

كسرى وقيصر وطغاة الأرض. وقد حششتم أنتم اليوم هذه النار التي اقتدحها رسول الله (ص) لتحرقوا بها عروش الظالمين في إيران والروم والشام. حششتم هذه النار على بيوت آل محمّد يوم عاشوراء.

فوا أسفاه عليكم. اتّخذتم أعداءكم أولياء لكم واتّخذتم أولياءكم أعداء لكم، من غير أن يتغيّر موقعهم منكم من العداوة إلى الولاية ومن الظلم إلى العدل ومن الإساءة إلى الاحسان، ومن غير أن تتوقّعوا منهم هذا الانقلاب.

إنّ هذا الخطاب التوعويّ الحزين يعصر قلب الإمام (ع) حزنًا وهمًّا، ويؤسفه لما آل له أمر المسلمين من سوء التقدير والتدبير.

س. الربّانيّة

هذه الخصلة من أبرز خصال نهضة الحسين (ع)، بدون استثناء، والعنوان في الأصل مأخوذ من القرآن الكريم ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[١٨].

والرِّبِّيّون: بمعنى الربّانيّون، نسبةً إلى الربّ سبحانه وتعالى، والربّانيّ وهو العالم بربّه الموحّد والمخلص له، والصادق في توحيده وإخلاصه لله تعالى.

الربّانيّة بين التوحيد والإخلاص

وللربّانيّة بداية ونهاية. بدايته التوحيد، ونهايته الإخلاص. ومعنى التوحيد الايمان بأنّ الله تعالى هو وحده الخالق، والرازق، والمهيمن،

---

(١٨) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

والحاكم، والمالك، والديّان، والمشرّع، وأنّ كلّ شيء وكلّ حول وقوّة منه تعالى، ولا شريك له في الخلق والرزق والحاكميّة والملك والسلطان والحول والقوّة والدين والتشريع. وكلّ شيء له ومنه.

﴿لِلّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾[19].

﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ﴾[20].

﴿ولِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[21].

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ﴾[22].

﴿ولِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[23].

وهذا هو أرفع درجات الوعي والمعرفة.

وغاية هذه المسيرة ونهايتها الإخلاص، وهو أن يجعل العبد كلّ دينه وعبادته وطاعته وحركته ومنطقه وموقفه لله تعالى، لا شريك له في ذلك. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾[24]. وهذا هو أرفع درجات العمل، وتكامل الإنسان بين الوعي والعمل الصالح.

كما أنّ التوحيد أعلى درجات الوعي والإخلاص في درجات العمل.

وبين هذا وذاك مراتب ومراحل من السلوك إلى الله من حبّ الله، والثقة به تعالى، والدعاء والإنابة والدعوة إليه، والاستغاثة والاستعانة به سبحانه.

وحركة الإمام الحسين (ع) من المدينة إلى كربلاء، ومن مقابلة الوليد

---

(١٩) سورة الروم، الآية ٤.

(٢٠) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

(٢١) سورة آل عمران، الآية ١٨٩.

(٢٢) سورة النساء، الآية ٧٨.

(٢٣) سورة النساء، الآيتان ١٣١ و١٣٢.

(٢٤) سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢ و١٦٣.

بن عتبة ومروان بن الحكم إلى مصرعه في كربلاء، كلّها يدور حول محور التوحيد والإخلاص. فهو في هذه الحركة يسعى لانتزاع الطاعة والولاية والحاكميّة من الطغاة والظالمين، وإرجاع الولاية والحاكميّة والطاعة إلى الله تعالى.

يقول (ع) في خطابه لمن تبقّى من الصحابة وأبناء الصحابة والتابعين، وهو يعلن أنّ خروجه ليس منافسةً في مال ولا سلطان، ليعيد الدين والطاعة والولاية لله عزّ وجلّ.

> اللّهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن ما كان منّا تنافسًا في سلطان، ولا التماسًا لفضول الحطام، ولكن لنرى المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلوم من عبادك ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك.

وهو نصّ جامع يجمع المسيرة كلّها من البداية إلى النهاية. البداية هي «لنرى المعالم من دينك... ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك»، وهو يعني توحيد الطاعة والحاكميّة والدين والحكم لله تعالى. وعن النهاية يقول (ع) في نفس الخطاب إنّ حركته ومسيرته وعمله لم يكن لغاية من الغايات التي يطلبها الناس في حياتهم من حطام الدنيا، وإنّما كان عمله لتحكيم دين الله وشريعته في حياة الناس.

وعن هذه الغاية الشريفة الرفيعة يقول (ع) في خطابه لأخيه من أبيه محمّد بن الحنفيّة: «وإنّي لم أخرج أشرًا، ولا بطرًا، ولا مفسدًا، ولا ظالمًا، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي».

وبين هذه البداية وتلك الغاية نجد مشاهد من التسليم لله، والرضا بأمره، والثقة به، ورجاء رحمته، وطلب لقائه، والصبر على الأذى في جنبه، واللجوء إليه، واحتساب الأجر والجزاء عنده، والاستهانة بما ينزل من المصائب ما دامت بعينه، والاستبشار بلقاء الله ومرضاته، ولقاء رسوله (ص) وما يبهر العيون، ويستهوي الأفئدة من المشاهد الربّانيّة في

يوم عاشوراء.

فاستمع لما نلقيه عليك من كلمات الإمام (ع) وخطابه في مسيره من المدينة إلى كربلاء، ومن مرقد رسول الله (ص) عندما ودّعه الحسين (ع) في المدينة إلى مصرعه في كربلاء. وهي مسيرة مباركة بما اكتنفته من نور ورحمة لهذه الأمّة.

مشهد التسليم والرضا بأمر الله والصبر على الأذى في جنبه تعالى

خطب الإمام (ع) في الناس لمّا عزم على الخروج إلى العراق، وقال فيما قال:

> خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين.

وهذا النصّ الذي يرويه السيّد في **اللهوف** والشيخ التستري في **الخصائص الحسينيّة** يجمع هذه العناوين الثلاثة. فهو تسليم لأمر الله من غير معاناة ولا تردّد «لا محيص عن يوم خطّ بالقلم» وهذا هو العنوان الأوّل. ورضى بأمر الله وتشوّق إلى لقائه ولقاء الأحباب «رضا الله رضانا أهل البيت»، «وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف»، وهذا هو العنوان الثاني والثالث.

مشهد الثقة والرجاء بالله

يقول (ع) عن مسيره إلى كربلاء، كما في رواية الطبري في التاريخ: «أنا

والله لا أرجوا أن يكون خيرًا ما أراد الله بنا، قتلنا أم ظفرنا»[25].

ويقول (ع) في دعائه الذي يرويه أرباب السير عنه، ومنهم الطبري في التاريخ وابن الأثير، وابن عساكر والمفيد:

اللّهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منّي إليك عمّن سواك، فكشفته وفرّجته، فأنت وليّ كلّ نعمة ومنتهى كلّ رغبة[26].

والثقة الحقيقيّة هي التي يرفعها الإنسان إلى الله عند البأساء والضرّاء.

مشهد ابتغاء لقاء الله

يقول (ع) في جواب من يدعوه إلى لقاء ابن زياد: «أنا والله لا أجيبهم إلى شيء حتّى ألقى الله وأنا مخضّب بدمي». وكان أيضًا يدعو الناس إلى توطين أنفسهم في هذه المسيرة للقاء الله تعالى: «فمن كان فينا باذلًا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحًا غدًا، إن شاء الله».

وقال له حنظلة – رضوان الله عليه – وهو يستأذن في القتال: «أفلا نروح إلى ربّنا ونلحق بأخواننا ؟»، فقال له (ع): «رُح إلى خير من الدنيا وما فيها»[27].

---

(٢٥) محمّد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء ٦، الصفحة ٢٣٠.

(٢٦) المصدر نفسه، الجزء ٧، الصفحة ٣٢٧؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء ٣، الصفحة ٢٨٧؛ ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، «قسم الإمام الحسين عليه السلام»، الصفحة ٢١١؛ الشيخ المفيد، **الإرشاد**، الصفحة ٢٣٣.

(٢٧) **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٣٥٢؛ **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٩٢

مشاهد الصبر على الأذى في جنب الله

يقول (ع) في خطابه في مكّة: «لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، نصبر على بلائه، ويوفّينا أجور الصابرين».

مشاهد احتساب الأجر والجزاء عند الله

لمّا استشهد حبيب بن مظاهر – رضوان الله عليه – قال: «عند الله احتسب نفسي وحماة أصحابي»[٢٨].

مشاهد الاستهانة بالمصائب

قال (ع) لمّا رمى الخبيث حرملة بن كامل الأسدي رضيعه عبد الله على يده، فذبحه بالسهم من الوريد إلى الوريد، كما يقول أرباب السير: «رفع الحسين (ع) رأسه إلى السماء وقال: هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله»[٢٩].

مشهد الاستبشار بلقاء الله تعالى ولقاء رسوله والأحبّة من أوليائه

قال (ع) لأصحابه بعد أن صلّى بهم الظهرين بإكرام:

> هذه الجنّة قد فتحت أبوابها، واتّصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، وهذا رسول الله صلّى الله عليه وآله والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يتباشرون بكم، فحاموا عن دين الله ودين نبيه وذُبوّا عن حرم رسول الله[٣٠].

وقال لهم:

---

(٢٨) تاريخ الطبري، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٣٤٩.

(٢٩) المصدر نفسه، الجزء ٧، الصفحة ٣٦٠.

(٣٠) عبد الرزّاق المقرّم، مقتل الإمام الحسين عليه السلام، الصفحة ٢٩٧.

إنّ الله قد أذن في قتلكم وقتالكم هذا اليوم، فعليكم بالصبر والقتل، صبرًا يابن الكرام فما الموت إلّا قنطرة، تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعم الدائمة. فأيكّم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب[٣١].

وأروع هذه المشاهد مشهد دعائه (ع) وتضرّعه إلى الله في آخر ساعة حياته. روى الشيخ الطوسي في **مصباح المتهجّد** والسيّد ابن طاووس في **الإقبال** أنّ الحسين (ع) في آخر لحظات حياته فتح عينيه إلى السماء وناجى الله بهذه المناجاة:

اللّهم متعاليَ المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غنيّ عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريب إذا دعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، تدرك ما طلبت، شكور، ذكور إذا ذكرت، أدعوك محتاجًا، وأرغب إليك فقيرا وأفزع خائفًا، وأبكي مكروبًا، وأستعين بك ضعيفًا وأتوكّل عليك كافيًا.

اللّهم احكم بيننا وبين قومنا، فإنّهم غرّونا وخدعونا، وخذلونا، وغدروا بنا، وقتلونا، ونحن عترة نبيّك وولد حبيبك محمّد صلّى الله عليه وآله الذي اصطفيته بالرسالة وائمنته الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا يا أرحم الراحمين.

صبرًا على قضائك، يا ربّ لا إله سواك، ياغياث المستغيثين، مالي ربّ سواك، ولا معبود غيرك، صبرًا على حكمك، يا غياث من لا غياث له، يا دائمًا لا نفاد له، يا محيي الموتى، يا قائمًا على كلّ نفس بما كسبت أحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين.

إنّ عاشوراء وكربلاء حافلتان بثقافة الثورة والخروج على الظالم، ولا موضع لظالم وطاغية في مجتمع يحمل ثقافة عاشوراء. وإنّ هذه الثقافة الواسعة التي تحدّثنا عن طرف منها في هذا المقال تملأ قلوب المستضعفين

---

(٣١) عبد الله البحراني، العوالم، الصفحة ٣٧٢.

ثقةً بالله، وتوكّلًا عليه تعالى، وغضبًا على الظالمين، وجرأةً عليهم، وتخيف الظالمين، وتعرّض عروشهم لهزّات قويّة، وتسلبهم الأمن والراحة، وتهدّدهم في عقر دورهم، وداخل قلاعهم العتيدة.

إنّ هذه الثقافة التي تختزنها عاشوراء هي سرّ خلود هذا اليوم في التاريخ وانشداد الناس لها عبر القرون، وسرّ هاجس الخوف الذي يملأ قلوب المستكبرين. ولذلك نجد في قلوب جماهير الناس انشدادًا لعاشوراء، وفي قلوب الطغاة نفورًا وكراهية وبغضًا لعاشوراء.

٢. ثقافة الولاء والبراءة

من أعظم ثقافات عاشوراء وكربلاء ثقافة الولاء والبراءة، وهي ثقافة أساسيّة في بناء الشخصيّة الإسلاميّة، متميّزة في هذا الدين فلا نجد في غير الإسلام ثقافةً بمثل قوّتها ومتانتها وإحكامها.

وهذه الثقافة مبثوثة في النصوص المأثورة من زيارات أهل البيت (ع) مثل الزيارة الجامعة المعروفة، والزيارات الجامعة الأخرى، وزيارات أمير المؤمنين (ع) المطلقة والخاصّة، وزيارة الإمام المهديّ (عج) وبشكل خاصّ في زيارات الإمام الحسين (ع) المطلقة والخاصّة وزيارة عاشوراء.

ونلاحظ في ثقافة الولاء والبراءة أنّها ثقافة توحيديّة منحدرة عن أصل التوحيد، وتأتي في امتداده الطوليّ، فلا ولاء لغير الله سبحانه في الأساس، وكلّ ولاء مشروع يأتي في امتداد الولاء له سبحانه. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٣٢].

كما نقرأ في نصوص الزيارة الجامعة المخصوصة لأهل البيت (ع)[٣٣]:

---

(٣٢) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٣٣) الزيارة الجامعة المرويّة عن الإمام الهادي (ع).

«من والاكم فقد والى الله، ومن عاداكم فقد عادى الله، ومن أطاعكم فقد أطاع الله، ومن عصاكم فقد عصى الله، ومن أحبّكم فقد أحبّ الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله».

وعن رسول الله (ص): «فمن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى عليًا فقد عصاني»[٣٤].

ونضيف ملاحظةً أخرى: أنّ كلّ المقولات الثقافيّة الداخلة في الولاء والبراءة من مقولة التوحيد، أعني أنّها جميعًا لله تعالى أوّلًا وبالذات ولا تكون لغير الله من أنبيائه وأوليائه (ع) إلّا بإذنه تعالى. فالحبّ مثلًا من مقولات الولاء، ولا ولاء من دون الحبّ، ولكن لا يكون مشروعاً مقبولاً إلاّ إذا كان في الله ولله.

روى الترمذي في الصحيح عن رسول الله (ص): «أحبّوا الله لما يغذوكم، وأحبّوني بحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي بحبّي»[٣٥]. وفي الزيارة الجامعة: «من أحبّكم فقد أحبّ الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله».

وملاحظة ثالثة أنّ للولاء وجهًا آخر لا يفارقه قطّ، وهو البراءة، فأينما تحقّق الولاء، تحقّقت البراءة بإزائه: البراءة من أعداء الله وأعداء رسوله وأوليائه. وكما أنّ الولاء لله وفي الله، كذلك البراءة من أعداء الله وأعداء رسوله وأوليائه تتمّ بأمره وفيه، وهما وجهان لقضيّة واحدة، والولاء الذي لا يقترن بالبراءة من الولاء الساذج السطحيّ غير المقاوم.

وبعد هذه الملاحظات الثلاثة، نقدّم طائفةً من ثقافات الولاء والبراءة في زيارات أهل البيت وزيارة الإمام الحسين (ع) .

(٣٤) رواه الحاكم في المستدرك وصحّحه، الجزء ٣، الصفحتان ١٢٨ و١٢٩؛ ورواه المحبّ الطبري في الرياض النضرة، الجزء ٢، الصفحة ١٦٧.

(٣٥) الترمذي، صحيح الترمذي، الجزء ١٣، الصفحة ٢٦١؛ ورواه الحاكم في المستدرك، الجزء ٣، الصفحة ١٤٩، وصحّحه.

من أهمّ ثقافات الولاء والبراءة:

١. و ٢. الطاعة والتسليم

لا ولاء من غير طاعة وتسليم. وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأولياء الأمور[٣٦]، يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وقد ورد في نصّ الزيارة الجامعة: «مطيع لكم، عارف بحقّكم، مقرّ بفضلكم، محتمل لعلمكم، محتجب بذمّتكم».

وقد قلنا قريبًا: إنّ الطاعة من المقولات التوحيديّة، فكلّ طاعة وولاية لا تتمّ بإذن الله تعالى وأمره لا شرعيّة واقعيّة لها، وقد قرأنا قريبًا في النصّ السابق للزيارة الجامعة: «من أطاعكم فقد أطاع الله، ومن عصاكم فقد عصى الله». والتسليم أعمق من الطاعة وقد ورد عن التسليم في الزيارة الجامعة: «مُسَلّم فيه معكم، وقلبي لكم مسلم ورأيي لكم تبع».

٣. التبعيّة في السلم والحرب

جاء في الزيارة الجامعة: «أنّي مؤمن بكم وبما آمنتم به، كافر بعدوّكم وبما كفرتم به، مستبصر بشأنكم وبضلالة من خالفكم، موالٍ لكم ولأوليائكم، مبغض لأعدائكم سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم». وجاء في زيارة عاشوراء: «إنّي سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة». كذا في الزيارة الجامعة: «من اعتصم بهم فقد اعتصم بالله، ومن تخلّى عنهم، فقد تخلّى عن الله، وأشهد الله أني حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم».

---

(٣٦) يستقيل العقل بطاعة الله، وعليه، فالأوامر الواردة في كتاب الله بطاعة الله إرشاد الى حكم العقل بطاعة الله.

وقد روى الثقاة عن رسول الله (ص) أنّه قال لعليّ وفاطمة والحسن والحسين (ع): «أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم»[٣٧]. وروى ابن ماجه في السنن أنّ رسول الله (ص) قال لهم: «أنا سلم لمن سالمتم وحرب لمن حاربتم»[٣٨]. وطرق هذه الروايات كثيرة لسنا بصدد استعراضها.

٤. الإحقاق والإبطال

من أهمّ مسؤوليّات الولاء؛ الإحقاق والإبطال في المساحة الثقافيّة، وحملة الولاء مسؤولون عن الدفاع عن حريم ثقافة أهل البيت (ع)، وإحقاق ما يحقّقون ويقولون، وإبطال ما يبطلون. جاء في الزيارة الجامعة: «محقّق لما حقّقتم، مبطل لما أبطلتم، مطيع لكم، عارف بحقّكم».

٥. النصرة

جاء في زيارة رسول الله (ص) يوم الجمعة: «قلبي لكم مُسَلّم ونصرتي لكم معدّة، حتّى يحكم الله بدينه». وجاء في زيارة أبي الفضل العبّاس (ع): «وقلبي مُسَلّم لكم وتابع ونصرتي لكم معدّة، حتّى يحكم الله وهو خير الحاكمين». وفي الزيارة الجامعة: «ونصرتي لكم معدّة حتّى يحيي الله تعالى دينه بكم».

٦. الثأر

وإذا وجب النصر في الولاء كعنصر أساسيّ في نسيج الولاء لمن حضر

(٣٧) صحيح الترمذي، مصدر سابق، «كتاب المناقب»، الباب ١٦ «فضل فاطمة بنت محمّد»، الجزء ٢، الصفحة ٣١٩.

(٣٨) أبو عبد الله محمّد بن يزيد بن ماجه، سنن ابن ماجه، المقدّمة، الباب ١١، الصفحة ١٤٥؛ ورواه الحاكم في المستدرك، الجزء ١٣، «كتاب معرفة الصحابة»، الصفحة ١٤٩.

ساحة الصراع، فلا بدّ من إدخال عنصر الثأر في نسيج الولاء لمن لم يحضر المعركة، وليس الثأر بمعنى الفتك بأبناء القتلة وذراريهم، وإنّما الثأر بمعنى مواصلة الدفاع عن قضيّة الشهداء وإحقاقها، وتثبيتها وتأصيلها، وإبطال الجهة الأُخرى ومكافحتها وإلغائها.

ورد في زيارة عاشوراء: «فأسأل الذي أكرم مقامك وأكرمني بك أن يرزقني طلب ثارك مع إمام منصور من أهل بيت محمّد صلّى الله عليه وآله». وورد أيضًا في نفس الزيارة: «وأسأله أن يبلّغني المقام المحمود لكم عند الله، وأن يرزقني طلب ثأركم مع إمام هدًى ظاهر ناطق بالحقّ منكم».

٧. الحبّ والعداء

فكما يحبّ الاتّباع في السلم والحرب، كذلك يجب إتباعهم في الحبّ والعداء، ويجب علينا حبّ أولياء الله وبغض أعدائه وأعدائهم.

جاء في الزيارة الجامعة: «موال لأوليائكم ومبغض لأعدائكم ومعاد لهم». وفي زيارة السيّدة فاطمة الزهراء (ع): «أشهد الله ورسله وملائكته أني راضٍ عمّن رضيت عنه، وساخط على من سخطت عليه، متبرّئ ممّن تبرّأت منه، موالٍ لمن واليت، معادٍ لمن عاديت، مبغضٌ لمن أبغضت، محبّ لمن أحببت، وكفى بالله شهيدًا».

٨. الرضا والسخط

كما يجب التبعيّة في الحبّ والبغض كذلك يجب التبعيّة في الرضا والسخط في دائرة الولاء. وقد قرأنا قبل قليل هذا المعنى في زيارة فاطمة بنت رسول الله (ص)، ونقرأ في زيارة رسول الله (ص): «وأشهد يا رسول

الله أنّي مؤمن بك وبالأئمّة من أهل بيتك، موقن بجميع ما أتيت به، راضٍ، مؤمن».

وجاء في زيارة فاطمة ابنة موسى بن جعفر (ع): «والتسليم إلى الله، راضيًا به غير منكر ولا مستكبر، وعلى يقين ممّا أتى به محمّد صلّى الله عليه وآله وبه راضٍ، نطلب بذلك وجهك ياسيّدي».

٩. المعيّة والتبعيّة

ويقصد المعيّة والتبعيّة في السلم والحرب، وفي السرّاء والضرّاء، وفي الثقافة والمواقف، وفي الإحقاق والإبطال، وفي الحبّ والبغض، وفي الدنيا والآخرة.

جاء في زيارة رسول الله (ص) كما في **المصباح**: «فمعكم معكم لا مع عدوّكم». وجاء في زيارة سفير الحسين (ع) مسلم بن عقيل مخاطبًا له ولأهل البيت وأنصارهم: «فمعكم معكم، لا مع عدوّكم، صلوات الله عليكم وعلى أرواحكم». وجاء في زيارة الحسين (ع): «أسأل الله بالشأن الذي لك عنده وبالمحل الذي لك لديه أن يصلّي على محمّد وآل محمّد، وأن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة»، «وقلبي لقلبكم سلم، وأمري لأمركم تبع، ونصرتي لكم معدّة، حتّى يأذن الله لكم، فمعكم معكم، لا مع عدوّكم صلوات الله عليكم وعلى أرواحكم وأجسادكم وشاهدكم وغائبكم»، كما جاء في زيارة أبي الفضل العبّاس (ع): «فمعكم معكم لا مع عدوّكم».

١٠. الميراث والانتظار

يستوعب الولاء كلّ الزمان من الماضي، عبر الحاضر، إلى المستقبل. فنحن

نرث من أولياء الله مواريث العلم، والمعرفة، والموقف، والرأي، والقرار، والقيم، والأخلاق، وهم يرثون بعضهم من بعض.

نقرأ في زيارة الإمام الحسين (ع): «السلام عليكم يا وارث آدم صفوة الله. السلام عليك يا وارث نوح نبيّ الله. السلام عليك يا وارث موسى كليم الله. السلام عليك يا وارث عيسى روح الله. السلام عليك يا وارث محمّد حبيب الله». ونحن نرث الحسين (ع)، وارث الأنبياء جميعاً، وهذا الميراث بمعنى الاتّباع والمعيّة. فإذا أعلنّا اتّباعنا ومعيّتنا لخلفاء رسول الله (ص)، فقد أعلنّا اتّباعنا ومعيّتنا له (ص) ولمن يسبقه من الأنبياء.

وتمتدّ هذه العلاقة إلى المستقبل، فنحن ننتظر في المستقبل وَعْد الله تعالى بالميراث الكبير على يد الإمام المنقذ المهديّ من آل محمّد صلوات الله عليه وعليهم، فقد وعدنا الله تعالى في **الزبور والتوراة والقرآن** بهذا الميراث العظيم على يد الإمام المهديّ (عج) من آل محمّد، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٣٩].

ونقرأ في دعاء الندبة، الندبة الحزينة التي تعبّر عن عمق الانتظار في نفوسنا: «أين المعدّ لقطع دابر الظلمة؟ أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج؟ أين المرتجى لإزالة الجور والعدوان؟ أين المدّخر لتجديد الفرائض والسنن؟».

وبعد، فإنّ ثقافة الولاء والبراءة تعمّق ارتباط الإنسان بالله تعالى، بأنبيائه ورسله وأوصيائهم، وتعمّق ثقافتنا برسول الله (ص) وأوصيائه وخلفائه من بعده، وبقدر ما يتمّ في نفوس المؤمنين تعميق الولاء في هذه الزيارات، يتعمّق في المقابل النفور والكراهية والعداء للظالمين والجبابرة والطغاة، والبراءة منهم ومقاطعتهم والتشهير بهم، والتسقيط بهم، والتمرّد عليهم.

---

(٣٩) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

وهو بعض السرّ في الخطر والتهديد الذي يشعر به الطغاة والجبابرة على مرّ التاريخ من إقبال الناس على زيارة الحسين (ع) واحتفائهم بمرقده الشريف واجتماعهم عنده، ومجالس النياحة والعزاء التي يقيمونها في عاشوراء وعلى امتداد السنة.

إنّ استشعار الطغاة والجبابرة الخطر والتهديد لسلطانهم، من ناحية الزيارات الحسينيّة الحاشدة، ومن ناحية مجالس العزاء والنياحة، لم يأتِ من فراغ، بل يجدون في القيم التي تختزنها القضيّة الحسينيّة ومفاهيم الولاء والبراءة التي تحملها نصوص الزيارات توعيةً واسعةً سياسيّةً وحركيّةً للجمهور المستضعف المضطهد المغلوب على أمره.

إنّ هذا الجمهور يجد في هذه القيم والمفاهيم الوعي المطلوب الذي من شأنه أن يمكنه من اتّخاذ الموقف والقرار، والخروج من دائرة نفوذ الاستكبار والقهر والاستبداد السياسيّ للحكام الظالمين وإزالة جدار الرعب الذي يحجز الجمهور عن المطالبة بحقوقه وعن حقّه في تقرير مصيره. وهذا هو بالذات ما يخافه السلاطين والملوك والرؤساء والأمراء من الزيارات الحسينيّة ومجالس العزاء والنياحة التي تقام في أطراف العالم الإسلاميّ، إحياءً لذكرى سيّد الشهداء (ع).